الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة ابن خلدون . تيارت

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

ميدان : اللغة و الأدب العربي .

الشعبة: دراسات نقدية .

التخصص :نقد حديث و معاصر .

شعر المقاومة عند سميح القاسم

قراءة في ديوانه

مذكرة التخرج لنيل شهادة الماستر .

إعداد الطالبان :

عبدالخالق هواري عسول .

أمال مزار.

إشراف الدكتور :

د . رابح شريط .

أعضاء اللجنة المناقشة :

د . محمد نعار : .....رئيسا .

د . محمد بلحسين : .....مناقشا .

د . رابح شريط : .....مشرفا و مناقشا .

تاريخ المناقشة :

.....

السنة الجامعية : 1443/1442هـ .2021/2020م .

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة ابن خلدون . تيارت

كلية الآداب و اللغات

قسم اللغة و الأدب العربي

ميدان : اللغة و الأدب العربي .

الشعبة: دراسات نقدية .

التخصص :نقد حديث و معاصر .

شعر المقاومة عند سميح القاسم

قراءة في ديوانه

مذكرة التخرج لنيل شهادة الماستر .

إعداد الطالبان :

عبدالخالق هواري عسول .

أمال مزار.

إشراف الدكتور :

د . رابح شريط .

أعضاء اللجنة المناقشة :

د . محمد نعار : .....رئيسا .

د . محمد بلحسين : .....مناقشا .

د . رابح شريط : .....مشرفا و مناقشا .

تاريخ المناقشة :

.....

السنة الجامعية : 1443/1442هـ .2021/2020م .

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ قَالُواْ سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ
إِنَّكَ أَنْتَ العَلِيمُ الحَكِيمُ ﴾

سورة البقرة الآية 32

الإهداء

لا خيل عندك تهديها و لا مال فليسعد النطق إن لم تسعد الحال .

إلى معلم البشرية جمعاء .. من بلغ الرسالة وأدى الأمانة .. ونصح الأمة ..

سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .

إلى من كان لهم التضحية و الدم ، و كان لنا الفخر و العزة بهم .. إلى الشهداء .

إلى أغلى ما في هذا الوجود الوالدين الكريمين أطال الله في عمريهما و حفظهما .

إلى كل من علمنا و لو حرفا .

إلى الساعيين وراء الحقيقة من أجل اقتناصها .

إلى كل من عرفتهم من قريب أو من بعيد و جمعتني بهم كلمة طيبة ...

إليكم جميعا ... نهدي عملنا المتواضع .

– عبد الخالق هواري عسول .

– أمال مزار .

شكر و تقدير

امتثالا لقوله تعالى : ﴿ رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليا و على والدي و أن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين ﴾ سورة النمل الآية 19 .

فالشكر أولا لله جل في علاه الذي وفقنا بقدرتة فلولا معية الله ما استطعنا الوصول .

ثم نتوجه بالشكر و التقدير و العرفان إلى كل من ساعدنا في انجاز هذا العمل المتواضع بدءا بالسيد المشرف الدكتور رابح شريط الذي تفضل علينا بقبول إشرافه على مذكرتنا ، وعلى مساندته لنا و حرصه على توجيهنا ، و نثمن عالي صبره و حلمه ، فإننا نسأل الله أن يجزيه خير الجزاء و أن يبارك في عمره و صحته و عطائه .

إلى جميع الأساتذة و الدكاترة و العمال بجامعة ابن خلدون تيارت .

إلى كل طلبة اللغة و الأدب العربي .

مـدخـل : شعر المقاومة .

- المقاومة لغة و اصطلاحا .
- ترجمة الشاعر و بعض مؤلفاته .
- أبرز شعراء المقاومة .
- ثقافة المقاومة .

المقاومة لغة و اصطلاحا :

المقاومة لغة :

من فعل قام (قام–قوما–قياما–قومة) بمعنى « انتفض واقفا ، قاومه للمصارعة و غيرها قام له ، تقاوموا في الحرب قام بعضهم لبعض »[1] و كل المعاجم في العربية أجمعت على هذه المعاني لفعل قام الذي هو مصدر المقاومة ، و هي بهذه المعاني التي تحمل دلالات الصمود و الرفض تبدو تقريبا كالصورة التي يمكن تخيلها في الذهن ، و كالمعاني التي يمكن أن نفهمها من كلمة المقاومة و التي تتحدد في الوقوف أمام الاعتداء ، و الثبات أمامه ، و ديمومة هذا الوقوف و هذا الثبات .

المقاومة اصطلاحا :

المقاومة في المفهوم الاصطلاحي لا تبتعد كثيرا عن المفهوم اللغوي فهي تعني التصدي للعدو و دحره ، مع ملاحظة أن المقاومة بهذا المعنى تتعدى المواجهة في ميادين القتال ، لأبعد من ذلك ، كالمقاومة السياسية ، والاقتصادية ، و الثقافية ، و القانونية ، و الإعلامية ، و الأدبية ، و غيرها ، فكل ما من شأنه أن « يهيئ المجتمع فكريا و نفسيا و يجعله يستعد لمجابهة مسلحة منظمة وواعية »[2] يمكن أن نعتبره مقاومة.

إذن فصور المقاومة متعددة و كثيرة ، فكما يوجد المقاوم المقاتل ، يوجد كذلك السياسي المقاوم ، و هذا ما نجده في أغلب الثورات و الحركات النضالية في العالم ، و كذلك يوجد المثقف المقاوم ، و الإعلامي المقاوم ، و المبدع المقاوم ، و الشاعر المقاوم ، و غير ذلك .

[1] المعجم الوسيط،مجمع اللغة العربية،ط3، ج2،القاهرة،ص797.

[2] حسين جمعه،ملامح في الأدب المقاوم فلسطين أنموذجا،الهيئة العامة السورية للكتاب،سوريا،دط،دت،ص34.

ترجمة الشاعر و بعض مؤلفاته :

سميح القاسم :

ولد الشاعر سميح القاسم بمدينة الزرقاء الأردنية في 11-05-1939

و يسجل عليه أنه و هو طفل و عندما كان مع والديه بالأردن ، حيث كان أبوه يعمل في قوة حدود شرق الأردن في ذلك الحين ، و عندما كانت العائلة في طريق العودة إلى فلسطين بالقطار أثناء الحرب العالمية الثانية ، أخذ الطفل سميح بالبكاء ، فخاف الركاب أن تهتدي إليهم الطائرات الألمانية ، وبلغ بهم الذعر إلى التهديد بقتل الطفل ، إلى أن اضطر الأب لإشهار سلاحه بوجوههم .

وعندما كبر سميح و رويت له هذه الحادثة ، أخذ وعدا على نفسه أن يتكلم متى شاء ، وحيث يشاء ، و بأعلى صوت ، ولن يستطيع أحد إسكاته .

ينحدر القاسم من أسرة عربية درزية ، و هذا ما أتاح له قدرا أكبر من الحرية ، حيث أن الصهاينة يعتبرون أن الدروز قومية منفصلة عن القومية العربية ، و لهذا أعطوهم قدرا أكبر من الامتيازات و الحقوق تمييزا و تفضيلا على باقي العرب .

بدأ القاسم مبكرا في قرض الشعر ، وذلك ما عرضه مبكرا أيضا للمضايقات التي وصلت للسجن ، و فرض الإقامة الجبرية ، و الطرد من العمل ، و مختلف صنوف الإرهاب الفكري الذي يمارسه الصهاينة على العرب ، وعلى المبدعين بشكل خاص .

انظم القاسم مثل محمود درويش إلى الحزب الشيوعي الإسرائيلي ، حيث كان كما أسلفنا النافذة الوحيدة المتاحة للتعبير ، و بحد أدنى من الملاحقات ، كما يتشابهان أيضا في العمل بالصحافة ، حيث ساهم في تحرير صحيفتي الغد و الاتحاد ، كما تم تعيينه رئيسا لجريدة هذا العالم عام 1966م ، ثم رئيسا لتحرير جريدة الجديد ، و أسس منشورات عربسك في حيفا عام 1973م ، ثم ليدير المؤسسة الشعبية للفنون في حيفا ، أيضا تولى القاسم مهام رئاسة إتحاد الكتاب العرب بفلسطين منذ تأسيسه ، و رئاسة تحرير الفصيلة الثقافية إضاءات .

صدر له ستة دواوين وهو لم يتعد الثلاثين من عمره ، كما ترجمت أشعاره للغات الإنجليزية و الفرنسية و ألألمانية و الروسية و التركية ، و غيرها من اللغات ، وحصل القاسم على عدد من الجوائز و الدروع منها :

- غار الشعر من إسبانيا .
- جائزة البابطين من دولة الكويت .
- وسام القدس للثقافة (مرتين) .
- جائزة نجيب محفوظ من مصر.
- جائزة السلام من واحة السلام .
- جائزة الشعر الفلسطينية.

لقب سميح القاسم بمجموعة من الألقاب التي تشهد على مكانته الشعرية في خارطة الشعر العربي عامة و الفلسطيني خاصة ، و من هذه الألقاب : هوميروس من الصحراء ، قيثارة فلسطين ، متنبي فلسطين ، شاعر العرب الأكبر ، الشاعر القديس ، و غيرها من الألقاب .

تنوعت أعمال القاسم بين الشعر و النثر و المسرحية و الرواية و البحث و الترجمة ، و هذه الأعمال هي :

1. الشعر:

الرقم	العنوان	النوع	سنة النشر
1	مواكب الشمس	شعر	1958
2	أغاني الدروب	شعر	1964
3	إرم – سربية	شعر	1965
4	دمي على كفي	شعر	1967
5	دخان البراكين	شعر	1968
6	سقوط الأقنعة	شعر	1969
7	ويكون أن يأتي طائر الرعد	شعر	1969
8	إسكندرون في رحلة الخارج و رحلة الداخل	شعر	1970

9	ديوان سميح القاسم	شعر	1970
10	قرآن الموت و الياسمين	شعر	1971
11	الموت الكبير	شعر	1972
12	مراثي سميح القاسم	شعر	1973
13	إلهي إلهي لماذا قتلتني	شعر	1974
14	و ما قتلوه و ما صلبوه ولكن شبه لهم	شعر	1976
15	ثالث أكسيد الكربون	شعر	1976
16	ديوان الحماسة ج1	شعر	1978
17	ديوان الحماسة ج2	شعر	1979
18	أحبك كما يشتهي الموت	شعر	1980
19	ديوان الحماسة ج3	شعر	1980
20	الجانب المعتم من التفاحة الجانب المضيء من القلب	شعر	1981
21	جهات الروح	شعر	1983
22	قرابين	شعر	1983
23	كولاج 1- تكوينات	شعر	1983
24	الصحراء – سربية	شعر	1984
25	برسونا نون غراتا –شخص غير مرغوب فيه-	شعر	1986
26	لا أستأذن أحدا	شعر	1988
27	سبحة السجلات	شعر	1989
28	أخذة الأميرة يبوس	شعر	1990
29	الكتب السبعة	شعر	1994
30	أرض مراوغة-حرير كاسد –لا بأس.	شعر	1995
31	خذلتني الصحاري – سربية -	شعر	1998
32	كلمة الفقيد في مهرجان تأبينه- سربية -	شعر	2000
33	سأخرج من صورتي ذات يوم	شعر	2000

34	الممثل و قصائد أخرى	شعر	2000
35	ملك أتلانتس –سربيات	شعر	2003
36	عجائب قانا الجديدة–سربية–	شعر	2006
37	مقدمة ابن محمد لرؤى نوسترا اسميحداموس	شعر	2006
38	بغداد و قصائد أخرى	شعر	2008
39	أنا متأسف	شعر	2009
40	مكالمة شخصية جدا مع محمود درويش	شعر	2009
41	كولاج 2	شعر	2009
42	كتاب القدس	شعر	2009
43	حزام الورد الناسف	شعر	2009
44	الجدران –أوبريت–	شعر	2010

2.النثر :

الرقم	العنوان	النوع	سنة النشر
1	قرقاش	مسرحية	1970
2	عن الموقف و الفن	نثر	1970
3	من فمك أدينك	نثر	1974
4	الكتاب الأسود – يوم الأرض –	نثر	1976
5	إلى الجحيم أيها الليلك	حكاية	1977
6	الصورة الأخيرة في الألبوم	حكاية	1980
7	الكتاب الأسود – المؤتمر المحظور –	توثيق	1981
8	الرسائل مع محمود درويش	نثر	1989
9	مطالع من أنتولوجيا الشعر الفلسطيني في ألف عام	نثر	1990
10	رماد الوردة – دخان الأغنية –	نثر	1990
11	الراحلون	توثيق	1991
12	الذاكرة الزرقاء –قصائد مترجمة عن العبرية–مع نزيه خير	ترجمة	1991
13	ياسمين –قصائد مترجمة عن العبرية – مع نزيه خير	ترجمة	1995
14	حسرة الزلزال	نثر	2000
15	كتاب الإدراك	نثر	2000
16	بلا بنفسج –كلمات في حضرة غياب محمود درويش	نثر	2008
17	لا توقضوا الفتنة	نثر	2009
18	ملعقة سم صغيرة – ثلاث مرات يوميا –	حكاية	2011

أبرز من شعر المقاومة :

أولا : شعراء الجيل الأول :

يعتبر إبراهيم طوقان من الشعراء الكبار ليس على الساحة الفلسطينية فحسب بل من كبار شعراء العربية خلال القرن العشرين ، و لديه مجموعة كبيرة من الأشعار التي يمكن أن ندرجها تحت مسمى شعر المقاومة ، و من هذه الأبيات التي يرثي فيها ثلاثة من الشهداء الفلسطينيين الذين أعظمهم الإنجليز فيقول :

لما تعـــرض نجمك المنحـوس و ترنحت بعـــد الخيـــال رؤوس
ناح الأذان و أعول الناقـــوس فالليل أكدر و النـــهار عبـوس
طفقت تثور عواصف وعواطف والموت حيـنا طائف أو خاطف
والمعـــول الأبـــدي يمعـــن فالثـــرى ليردهم فـي قلبـــها المتحجر[1]

و رغم أن إبراهيم طوقان توفي عام 1941 ، أي قبل النكبة بسبعة أعوام ، إلا أن أشعاره في فلسطين و في حث أهلها على الثورة و قتال الإنكليز الذين كانوا يبسطون انتدابهم عليها آنذاك كانت تحرك القلوب و تلهب المشاعر .

و من ذلك هذه الأبيات التي تتصف بالاستهزاء بالإنكليز ، مقابل التزام الإنكليز التام بوعد بلفور الذي أعطى لليهود الحق في فلسطين فيقول :

قد شهدنا لعهدكم بالعدالة و ختمنـــا لجندكـم بالبسالـــة
و عرفنا بكم صديـــقا وفيـــا كيف ننسى انتدابه و احتلالـه
و خجلنا من لطفكم يوم قلتم وعد بلفـــور نافـــذ لا محـــاله
كل أفضالكم على الرأس و العين و ليـــس فـي حـــاجة لدلالـــة

[1] إحسان عباس ، ديوان إبراهيم ، دار القدس ، دط ، 1975 م ، ص97 .

ولئن ساء حالنا فكفانا أنكم عندنا بأحسن حالة

أهلا على البلاد تريدون فانجلوا أم محقنا و الإزالة[1]

و للشاعر إبراهيم طوقان أخت تعتبر من أشهر شاعرات فلسطين هي فدوى طوقان ، و لها عدد من القصائد الهامة في فلسطين و في الدفاع عن قضيتها و من ذلك الأبيات :

يا فلسطين اطمئني أنا و الدار و أولادي قرابين خلاصك

نحن من أجلك نحيا و نموت[2]

و غير بعيد عن هذا المعنى تدور أبيات للشاعر توفيق زياد في قصيدة له بعنوان (هنا باقون) من ديوان (أشد على أياديكم) فيقول :

كأننا عشرون مستحيل

في اللد في الرملة و الجليل

هنا على صدوركم باقون كالجدار

وفي حلوقكم

كقطعة الزجاج ... كالصبار

و في عيونكم زوبعة من نار

إنا هنا باقون

فلتشربوا البحر

نحرس ظل التين و الزيتون

و نزرع الأفكار ... كالخمير في العجين[3]

واضح هنا في هذه الأبيات روح التحدي و الصمود ، ودعوته جلية للوقوف بثبات أمام العدو ، مع ملاحظة أن الشاعر لم يجنح للخيال بل استعمل ألفاظا محددة و مفيدة

[1] إحسان عباس ، المرجع السابق ، ص157 .

[2] فدوى طوقان ، ديوان الليل و الفرسان ، دار العودة ، بيروت ، دط ، دت ، ص187 .

[3] توفيق زياد ، مجموعة أشد على أياديكم ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، ط1، دت ، ص194 .

تعكس وضوح الفكرة لديه ، وبهذا المعنى و الوضوح أراد لأبياته أن تصل للمتلقي و هو هنا المواطن العربي و الفلسطيني بصورة خاصة دون عناء أو مشقة ، و هي سمة قصائد الشعراء المشار إليهم و هم إبراهيم طوقان و فدوى طوقان و توفيق زياد.

ثانيا : شعراء الجيل الثاني :

للشاعر سميح القاسم قصيدة بعنوان (يد ظلت تقاوم) و هي من مجموعة (دمي على كفي) يقول فيها :

و إلى أن يبعث النهر

و تشدو في أغاني الحمائم

أملأ الدنيا هتافا لا يساوم :

كفر قاسم .. كفر قاسم .. كفر قاسم !!..

دمك المهدور مازال ..

و مازلـــــــنا نقـــاوم ![1]

والنص يصور مذبحة كفر قاسم التي ارتكبها اليهود بحق العرب الفلسطينيين و يدعو صراحة للمقاومة و عدم السكون .

و للشاعر محمود درويش قصيدة باسم (الأرض) تدور حول نفس الفكرة التي يعالجها سميح القاسم في أبياته السابقة و هي فكرة المقاومة فيقول محمود درويش :

أسمي التراب امتدادا لروحي

أسمي يدي رصيف الجروح

أسمي الحصى أجنحة

أسمي العصافير لوزا وتين

[1] سميح القاسم ، ديوان ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، دط ،1987م ، ص463 .

أسمي ضلوعي شجر

و أستل من تينة الصدر غصنا

و أقذفه كالحجر

و أنسف دبابة الفاتحين[1]

و تظهر روح الإصرار و العزيمة واضحة كذلك في هذه الأبيات للشاعر علي هاشم رشيد فيقول :

و سفينتنا عبر الأمواج

من غير شراع أو مجداف

أو بوصلة أو دفة حزم

لا زالت تضرب بالحيزوم جبال البحر

و يلاطم جنبيها الإعصار

وتسير تسير في إصـــرار

قد يقضي جيل أو أجيال

و سفينتنـــا ملـــك الأنـــواء

لم تبصر في حلك الظلمة أضواء فنار

لكن من يبقى سيصارع من غير كلال

حتى تشرق فوق الآفاق

أضواء نهار[2]

النص يريد أن يقول : أن المصائب مهما كثرت ، و الشدائد مهما تعددت ، و مهما طال أمد الظلمة ، سيبقى الشعب يقاوم و يقاوم ، حتى إن لم يكتب النصر للجيل الحالي فلابد أن يأتي جيل ما و يحقق النصر ، و النص كذلك يتحدث بصيغة الجمع (نحن) لأن الشاعر لسان حال قومه ، و لأن الحديث بصيغة الجمع أحد سمات شعر المقاومة.

وهنا نلاحظ سيادة نبرة التفاؤل في كل القصائد التي استعرضناها ، و التساؤل هنا عن مصدر هذا التفاؤل .

[1] محمود درويش ، الأعمال الأولى2 ، رياض الريس للكتب و النشر، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 2005م ، ص287 .

[2] قصي الحسين ، الموت و الحياة في شعر المقاومة ، دار الرأي العربي ، بيروت ، دط ، دت ، ص24 .

و الإجابة أن هذا الأمر أحد سمات و خصائص شعر المقاومة ، فهو – و لأن الشاعر المقاوم يقود المجتمع لكي يصوغ من المعاناة و الألم طريقا للخلاص – فلابد له أن يزرع الأمل في النفوس ، و يحث الناس على الصبر للوصول الى المبتغى .

ثالثا : شعراء الجيل الثالث :

إن شعراء هذا الجيل هم الذين ولدوا بعد نكبة عام ثمانية و أربعين ، و من أبرزهم الشاعر راشد حسين حيث يقول في قصيدته بعنوان ضد :

ضد أن تمسخ أغصان بساتيني مشانق
ضد ما شئتم و لكن
بعد إحراق بلادي و رفاتي و شبابي
كيف لا تصبح أشعاري بنادق[1]

ثقافة المقاومة :

لا شك في أن الثقافة بما تتضمنه من أبعاد فكرية تتصل بعمق بالمفاهيم الحضارية ، تشكل عاملا أساسيا في صيرورة منظومة الأفكار التي تسهم في بروز كينونة السلوكيات لدى مجموعة بشرية ما ، لترسم هويتها وفق نمط أيديولوجي سياسي ، له خصوصيته التي تزداد وضوحا و تجليا ، كلما ترسخت معالم تلك الثقافة في المتناول الواعي لتلك الفئة البشرية ، « و لا شك في أن الشعر أيضا شكل بالنسبة إلينا نحن أهل اللغة العربية ،عاملا ركنيا في التأسيس لتلك الثقافة الحضارية حيث كان ديوان العرب و كان الشاعر فيهم من يقف مدافعا عن قيمهم و كرامتهم ، راصفا السبيل أمامهم بالأحلام العذبة ، و المنى الزاخرة بالفخر و السؤدد ،و باثا فيهم جذوة توقد نار الحمية ، حتى يندفع أفرادهم إلى حتوفهم بنهم الجياع الراغبين في الأكل بعد حرمان مديد !!. و لماذا ؟ لأن الشعر كان يلامس في أعماقهم شغافها ، و يخاصر من

[1] رجاء النقاش ، ثلاثون عاما " مع الشعر و الشعراء ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، دط ، د ت ، ص 315

أفكارهم ما هو شرعتهم و عقيدتهم ، و بالتالي كانوا يندفعون إلى ندائه ، إندفاعهم إلى حقيقتهم التي يعطونها الغالي و الرخيص ، من هنا ندرك أهمية ارتباط النص الشعري و التزامه بقضايا ناسه و أهله »[1]

في المعركة الفكرية و الأدبية و الشعرية و الحربية ، تكون هناك محطات انتصار و أخرى انكسار ، فطبيعة النفس البشرية و العقل النفسية إن كانت في إحدى المحطتين تنتج ما يخرجها من تلك المرحلة أو ما يرجعها لأقل من تلك المرتبة و كذلك الشعر و عوامله الشعر و مسببات الشعر و يقول الأستاذ غالي شكري : « إن الأدب في ذاته نشاط إنساني يقاوم عوامل الضعف التي قد تنتاب النفس البشرية في لحظات الانكسار ، و يرى أنه ليس هناك عمل أدبي جاد في تاريخ الإنسان يمكنه أن يخلو من سمة المقاومة لأنه لابد أن يحتوي من وجه ما على فكرة الصراع و لعل هذا ما يعطي أدب المقاومة وجهه الإنساني العام الذي يتعدى الأطر القومية و القوالب الاجتماعية مما يجعل الكتاب ينفعلون و يكتبون عن قضايا شعوب لا ينتمون إليها »[2]

حلت على فلسطين نكبات و انتفاضات و حروب و جنائز لبواسل و قيادات ، مجرد ذكر النكبة في خاطر فلسطيني تبعث ارتفاعا لضغط الحزن ، و انخفاضا لدرجات الفرح ، فكيفما تحل هذه اللحظات و الأفكار و الذكريات المأساوية الجهنمية في نفس شاعر نشأ و ترعرع و تكون و التحم بهذا التراب فإنه سينفجر حزام الأفكار الناسف الذي يولد أشعارا تروق لحال الشعب و التراث و الهوية و القضية ، قضية ما رأت قضاة يوما ، و للاستعراض التاريخي للشعر المفعم بالنكبات و لتاريخ ما رأى شعورا بالتحرر يوما من بطش العدو و الخائن يقول راسم المدهون « منذ مطلع الخمسينات ازدحمت الساحة الفلسطينية بالشعراء الذين اصطلح على تسميتهم بشعراء النكبة ، و إن كنا نرى أن هذا الاصطلاح – بما يحمله من

[1] مروان الخطيب ، الشعر المقاوم شرفه يقض مضاجع الخصم .. ويبني ، مجلة بلسم ، عدد 351 ، لبنان ، 2004م ، ص90 .
[2] غالي شكري ، أدب المقاومة ، مجلة أدب و نقد ، عدد10 ، دار المعارف ، القاهرة ، 85 ، ص 134 .

معان سلبية- لا ينطبق عليهم جميعا ، فبينما غرق البعض في بكائيات فجائعية ، انطلق البعض الآخر في الحث على رفض الواقع ، متلمسا أسباب هذا الواقع و مرتكزاته ، رابطا بين مسألة الوطن و بين أشكال القهر و التخلف التي تأخذ بخناق جماهير هذا الوطن .

يمكن للحرف أن يقيم كلمة و للكلمة أن توقف عبارة و للعبارة أن تنشد شعرا و للشعر أن يهدم سقفا لعدو موهوم بإقامة هيكل يحميه الغرقد ، الكلمة سحر و حكمة تهدم جبلا و تفتت صخرة و ترحل عدوا و ترجع أسرى « إذن فالكلمة تسخر وفق إمكانات علائقيتها العدة دلالات ممكنة و قد كتب أدباء المقاومة أدبهم باستخدام المفردة الانسانية و تركيب الصور التي تشي بالحسرة الظلامة ، فكانوا ينتهجون الأدب النضالي من بعد يجعل المتلقي يعيش مناخات التساؤل ».[1]

حمل الشعراء على عاتقهم نبذ الحب و الغزل في ظل وجود وطن يعذب بلا ذنب و بلا ملجأ وبلا سند وبلا عمد ، فتحول نزار قباني من شاعر يكتب في الحب لشاعر يكتب بريشة القهر و الأسى بسبب الوطن ، شيد عبد الرحيم محمود و سميح القاسم و غيرهم أواصل الشعر الذي يقذف ألسنة اللهب المشعشع بالقهر على عدو حرم شعبهم و أرضهم و نفسهم من الحياة و حكم عليهم بالموت طالما وجدوا في أنفاسهم بقية.

و لم يقف جدار الشعر الثائر عند هؤلاء الشعراء بل امتد الجدار ليصبح دعائم مستقلة بذاتها تشيد بروجا و حصونا للدفاع و الحماسة على أيدي شعراء مقاومين بأقلامهم و بنادقهم ففي يد يحملون قلما و في الأخرى يحملون السلاح ، في زمن ينتظر فيه عمر و صلاح ، و منهم من بلغ مراتب درويش كتميم البرغوثي و منهم من بلغ مطاحن حروف سميح القاسم ، و كل نقطة حرف من هؤلاء الشعراء تزفها دماء شهداء و أنات أرامل و صرخات أطفال و مشردين و مشردات .

[1] محمد محسن ، البعد الإنساني في أدب المقاومة ، مجلة بلسم ، عدد 247 ، 1996م ، ص112 .

« إن أدب المقاومة عبر عن الآمال و الآلام ، عن العجز و العزم .. عن ضعف الحال و قوة الإرادة بغية تحقيق نصر آت عاجلا أو آجلا ، و لقد شاع في القرن العشرين مصطلح أدب المقاومة تحديدا في النصف الثاني من القرن العشرين عندما خاض الأدب العربي تجارب شديدة الوطأة عقب نكبة 1967م ، فتوالت الأعمال الأدبية و القصائد الشعرية من الأراضي المحتلة فجاءت قصائد محمود درويش و سميح القاسم و غيرهم ، و بالرغم من ذلك ، فإننا لن نغفل عن إرهاصات أدب المقاومة التي تمخضت عن وطأة الاستعمار الذي عانت منه مختلف الشعوب العربية و الإسلامية ، لذا لابد من الاعتراف أن أدب المقاومة له جذور منذ القرن التاسع عشر إلا أنه تبلور بشكله الحالي بدءا من النصف الثاني من القرن العشرين »[1]

خط الدفاع واللسان الناطق بالهجوم قبل الانطلاق أثناء إلتحام و تراص صفوف الجيش و النخب و المجموعات المجاهدة ، تكون كلمات الشعراء مشجعة و مهددة عدوا غاضبا و ترغمه على التراجع و أثناء الانطلاق في الهجوم و الصولات و الجولات تكون الكلمة أيضا لهم نبراسا و هاديا ، أقلام تؤرخ بعدها شرف و عزف أمواج الرصاص بكل فخر و اعتزاز ، فرسان الأقلام و رصاص الأوراق من شغلهم هم الوطن عن حب من سواه ، هنيئا لهم كما زخرفوا التاريخ أن يزخرف بهم التاريخ .

« المقاومة في معناها المطلق ليست مقصورة على شكل محدد من أشكال العمل الوطني ، و لو كان الكفاح المسلح ، إذ تتعدد أساليبها ؛ بتعدد طبيعة ملاكات العمل الوطني ، و يتسع مدلولها و يتراخى بين الصمت في حينه و بين لهجة السلاح عندما يأخذ السلاح دوره، مرورا بكل الوسائل التي يمكن أن يعتمدها المقاوم لإضعاف خصمه و التخلص منه ، بالقلم ، بالريشة ، بالإزميل ، بالصوت ، بالعيون ... و حتى بالهدوء و الصمت ، فهو يتمدد على أوسع مساحة من إمكانات التصرف الإنساني الرافض لواقع ما ، من أقصى جوانب

[1] داليا محمود الحديدي ، قدسيات أدب المقاومة ، المجلة العربية ، عدد 304 ، قطر ، 2008م ، ص86.

السلبية إلى أقصى جوانب الإيجابية ، و الفنان دائما و لأنه " جهاز الأمان " في الأمة ، و لأنه شاهد العصر و الضمير فيها ، هو المرهص بولادة روح المقاومة و بزوغ نبتها ، و الذي يهمنا أن نشير إليه حقيقة ، هو المفهوم الاصطلاحي للمقاومة و ما وراءه من خلفية سياسية و اجتماعية ، و يمكننا أن نلتمس روح المقاومة العربية في شعر الحماسة و البطولة قياسا على معطيات الظروف التي كان يغنى فيها »[1]

[1] حسني محمود حسين ، الشعر و اليقظة العربية قبيل الانتداب البريطاني مدخل لدراسة شعر المقاومة الفلسطينية ، مجلة شؤون فلسطينية ، عدد 104 ، 1980م ، ص 121-122.

الفصل الأول :

شعر المقاومة الإرهاصات و النشأة .

المبحث الأول : شعر المقاومة : تأصيل تاريخي .

المبحث الثاني : بواعث شعر المقاومة .

المبحث الثالث : مميزات و خصائص شعر المقاومة .

المبحث الأول : شعر المقاومة : تأصيل تاريخي .

شاع مصطلح أدب المقاومة في الحياة الثقافية خلال النصف الثاني من القرن العشرين ، وتحديدا بعد معارك 1967م بين العرب وإسرائيل ، فتشكلت من الأشعار التي تسربت من الأرض المحتلة بفلسطين إلى عواصم الدول العربية بأقلام محمود درويش ، سميح القاسم وغيرهما ، ولقبوا في حينه بـ"شعراء المقاومة". ولما تعددت الكتابات الإبداعية في أجناس الأدب المختلفة في إطار "النمط المقاومي" كان أدب المقاومة مصطلحا جديدا.

وقبل البدء في الحديث عن أدب المقاومة، لابد من تحديد مفهوم هذا الأدب ، إذ أن هذا المفهوم يستخدم بأكثر من معنى ، فهل يعتبر الأدب الذي يقاوم الظلم والاستبداد ، والقهر الاجتماعي من أدب المقاومة ، أم أن أدب المقاومة هو الأدب الذي يتمخض عن معركة أو حرب معينة.

يعرف الدكتور السيد نجم أدب المقاومة بقوله:« هو الأدب المعبر عن الذات (الواعية بهويتها) و (المنطلقة إلى الحرية) في مواجهة الآخر المعتدي ، على أن يضع الكاتب نصب عينيه جماعته/أمته ، محافظا على كل ما تحفظه من قيم عليا ».[1]

وفي الحقيقة هناك فارق بين من يكتب عن المقاومة ، وبين من يعيشها، بين الذي يتصور المقاومة ويتخيلها ، وبين من يكتب وهو بين نيرانها ، « فأدب المقاومة هو، أدب المقاومين، أولئك الذين يعيشون التجربة لحظة بلحظة ، وهو أدب يرى فيه المقاومون أنفسهم ، ويراهم منه ويحس بهم كل الناس ».[2] فقد أتيح لأدب المقاومة تجربة إنسانية عميقة، وهي تجربة الحرب والمقاومة.« فأدب

[1] www.islamonligne.net 2004

[2] شاكر نوري ، المقاومة في الأدب السوفياتي و مختارات 1939 -1945 ، دار الفارابي ، بيروت ، لبنان ، دط ، 1979 م ، ص18 .

المقاومة تجربة منفردة من بين الآداب الإنسانية عامة، لأنه ينتج خلال ظروف الحرب وتقرير المصير التاريخي، ولا يتوهج أدب المقاومة إلا في قلب المقاومة حيث يعانق المقاتل وجدان الفنان ».[1]

ولذلك يرى غالي شكري ضرورة التفريق بين الأدب الذي يقاوم قبل حدوث المحنة ، وهو الأدب الذي يرتفع إلى مستوى النبوءة ، والأدب الذي يؤرخ للأزمة بعد انتهائها بوقت طويل أو قصير.

فالأدب المقاوم هو ما يبدعه الأديب المقاوم الذي يساهم في المعركة أو الحرب عمليا.

وانطلاقا من هذا الفهم للأدب المقاوم، فالأدب العربي الذي يصارع الصهيونية في جميع أرجاء الوطن العربي هو أدب ثوري إنساني ، أما الأدب الذي يكتبه كل من محمود درويش ، وسميح القاسم ، وتوفيق زياد وغيرهم في الأرض المحتلة فهو أدب المقاومة ،« فما يميز أدب المقاومة هو الصراع ضد من يصنع الحرب ، ومآسيها ، وهو الأدب الذي يساهم في عملية تغيير الإنسان والعالم ، ويحمل روح الثورة والمقاومة والصمود »[2]

والمقاومة في الأدب جزء من المقاومة الثقافية بعامة ، وفي تاريخنا الحديث والمعاصر كان ثمة مقاومة مسلحة دائما ، ترافقها مقاومة ثقافية ، ربما كان من أبرزها المقاومة الثقافية في مواجهة الغزو الاستيطاني الصهيوني.

وتكمن الأهمية التاريخية لدب المقاومة في أنه لدى مختلف الشعوب عكس مرحلة تاريخية معينة، مر بها ذلك الشعب، كما ارتبط بمهمة تغيير ظروف الإنسان غير الطبيعية ، فقد تميزت آداب المقاومة، كالمقاومة الفلسطينية ، بالصراع من أجل تحرير الأرض والإنسان ، وإعادة بناء الذات الإنسانية من جديد . « فالكلمات مسدسات محشوة بقذائفها ، فإذا تكلم الكاتب فإنما يصوب

[1] شاكر نوري ، المرجع السابق ، ص 19 .
[2] نفس المرجع ، ص20 .

قذائفه، أو يجب أن يصوب تصويب رجل يرمي إلى أهداف، لا تصويب طفل يغمض عينيه ويطلق مصادفة من غير أن يكون له هدف سوى السرور بسماع الدوي ».

والحديث عن أدب السجون ، لا يعني بأي حال فصله عن الأدب الفلسطيني المقاوم ، لأن هذا الأدب يتدرج في إطار الأدب الفلسطيني المقاوم ، فهذا الأدب الذي ولد في ظروف لها خصوصيتها يرتبط ارتباطا عضويا بالكل ويصب فيه ويغذيه.

والأقلام التي أنتجت هذا الأدب، هي أقلام محسومة للثورة، ضحى أصحابها، وعانوا في سبيل القضية الفلسطينية التي هي قضيتهم ، كما قامت القصائد، والقصص التي تحررت من الأسر بدور كبير في عملية التحريض ضد الاحتلال.

والتجربة الاعتقالية عكست نفسها على النتاجات الأدبية ، وانعكست هذه النتاجات في التجربة وأعطتها أبعادا عميقة وجذرت مضامينها ، وهو بالتالي أعطى للتجربة نتاجات أدبية تفاعلت معها ، وأخرجتها في قوالب متنوعة أضافت للأدب الفلسطيني المقاوم امتدادات قوية ، وقد عبر جمال بنورة عن ذلك بقوله:« إن أدب السجون أدب واعد وعلى مستوى جيد من حيث الشكل أو المضمون، رغم الظروف الصعبة التي يعيشها السجناء ورغم أن كتاباتهم مهددة بالمصادرة. فوصول هذا النتاج الأدبي إلى القراء يعتبر إضافة هامة، كما و نوعا، إلى أدبنا الفلسطيني المقاوم إضافة إلى أنه سيكون لها أثرها على أدبنا الفلسطيني عامة ».[1]

وإذا ما نظرنا إلى تشخيص حسين مروة للشعر الفلسطيني المقاوم، فإننا سوف نصل إلى أن هذا التشخيص ينطبق على الشعر الاعتقالي. وأكثر من ذلك فإنه يدخل في صميم تصنيف حسين مروة،« إن هذا الشعر الثوري لا يعبر عن ثورة أصحابه معزولين عن حركة جماهيرية يعبرون عن صراعها، أي أن هؤلاء الشعراء ليسوا مجموعة من أشجار النخيل الثابتة في صحراء قاحلة، إن كونهم

[1] جمال بن نورة ، دراسات أدبية ، عاكا ، دار الأسوار ، دط ، 1987م ، ص 135 .

شعراء يملكون أصواتا مسموعة، لا ينبغي أن يخلق الانطباع بوحدانيتهم، وبالقطاع انتمائهم إلى جماهير تملك ماضيا وحاضرا ثوريين ».[1]

وعلى هذا الأساس فإن ما قيل عن الأدب الفلسطيني المقاوم يشمل بكل تأكيد الأدب الإعتقالي، مادام الأساس والمصدر واحدا. ومادامت الرؤية والهدف يتفاعلان تحت سقف مرحلة التحرر الوطني، بكل تبعاتها المحلية، وبكل ارتباطاتها الإنسانية والكونية.

فإبداعات الأسرى هي نتاج معاناة نفسية، وجسدية، فردية وجماعية، معاناة قاسية ومؤلمة، لا يلعب التخيل أو الوهم ولا التقمص فيها أي دور. فهي تقوم برصد استجابات عكسية لممارسات الإحتلال الواسعة النطاق التي كانت تستهدف إخضاع شريحة واسعة من الفلسطينيين، وقد تجلت هذه الاستجابات بالرفض والتحدي والدخول في مواجهات إذا اقتضت الضرورة إلى ذلك. وهو ما يسم هذه الكتابات والإبداعات التي تعبر عن مدى درجة التحرر الداخلي الذي وصل إليها الأسير المبدع، ومدى عمق رؤيته الإنسانية المستندة إلى انتماء صادق ووعي عال،« فالأدب في ذاته نشاط إنساني يقاوم عوامل الضعف والخور التي قد تلم بالنفس البشرية في لحظات الانكسار، فليس هناك عمل أدبي جاد في تاريخ الإنسان القديم والحديث، يمكنه أن يخلو من هذه السمة البارزة وهي «المقاومة» لأن هذا العمل يفقد عنصرا خطيرا من مكونات وجوده إذا خلا- من أحد وجوهه- من فكرة الصراع بين الإنسان والكون، سواء تمثل هذا الكون في الوجود الطبيعي أو النسيج البشري »[2]

قاوم المعتقلون واقع السجن بأشكال عدة ومنها : الكلمة المؤثرة الملتهبة التي تعبر بإحساس مرهف مفعم بطعم الحرية عن أفكار المعتقلين ومشاعرهم وأوضاعهم ، تصف حالتهم ، وتعبر عن مأساتهم ، تتأمل وتحلق عاليا في سماء الوطن، تنتظر الغد الآتي من بعيد ، تنتظر بفارغ الصبر أن يلوح في الأفق ما يبشر بفرج قريب ، واستطاعوا من خلال الكتابة ، أن يوجدوا نافذة يطلون من خلالها على الوطن الذي سلبوا حرياتهم من أجله ، فأنتجوا أدبا فلسطينيا جسد معاناة الفلسطيني بكل

[1] حسين مروة ، الموقف الثوري في الأدب ، منشورات الفكر العربي ، دط ، دت ، ص38 .

[2] غالي شكري ، أدب المقاومة ، مجلة أدب و نقد ، عدد10 ، دار المعارف ، القاهرة ، ص 7 .

أبعادها وأشكالها ، وراح يصور حياة الإنسان الفلسطيني ، فقد أسهمت القصائد ، و القصص التي نجحت في التحرر من الأسلاك الشائكة ، في عملية التحريض ضد الاحتلال وممارساته.

شعراء مرحلة القرن الحادي و العشرين جسر لابدّ أن يمر بهم التاريخ ليكتمل شرفه بهم ، « منذ ولدت أبجديتنا و حروفها تشكل ألوانا و أطباقا من الحضارة ، و تحفر على صدر التاريخ حكاياها ، أشعارها ، مواويلها ، معلقاتها ، أمثالها ، قوانينها ، و معادلاتها ، و تنسج في مواسمنا و مناسباتنا حكما و أقوالا و ترانيم ، لا بل تمنح أهل البسيطة فكرا حرا نيرا ، لم تطفح لغة الضاد بالمتألق من ابداعات مفكرينا و شعرائنا و أدبائنا و علمائنا عبر التاريخ فحسب و إنما كانت دائما رابطة عربية تؤلف بين ناطقيها ، و ظل الانتماء راسخا بعمق جذورنا ، نعم، يلف أفئدة المبدعين و يسري في دمائهم ، فجاءت انجازات مبدعينا تراكمية وضّاءة منيرة ، بل مبدّدة عتمة الطريق.»[1]

كما يشكل هؤلاء الشعراء طبقة المرحلة الحالية للشعر الفلسطيني الحالي الذي نشأ في ظل مقاومة باسلة، سبقهم طبقات على مرّ التاريخ الأدبي الفلسطيني كل نشأ في ظروف عاشها فأنطقته و حروب أضمرت في ضمير كلماته عبارات يحفظها لهم التاريخ و الأدب و الأجيال و الأحفاد و الشرفاء و المقدسات كما قاموا هم بدورهم في حفظ تلك الحياة الفلسطينية في أشعارهم عبر مرور الزمن من تمجيد الأبطال و التغني ببطولاتهم و الحث على الجهاد في سبيل إعلاء كلمة الله و استنهاض الهمم للدفاع عن المقدسات و تراب الوطن و دماء الشهداء، و يستعرض محمد شرّاب المراحل الزمنية الشعرية التي مرّت بها فلسطين على النحو التالي:

المرحلة الأولى: الذين ولدوا في العصر التركي ، و شاركوا في الحياة العامة و شهدوا جزءا من أيام الانتداب البريطاني ، و ماتوا و لم يشهدوا النكبة.

المرحلة الثانية: الذين ولدوا في بداية القرن العشرين و جاء الانتداب و هم أطفال ، و تفتحت أعينهم على جرائم الانتداب البريطاني، و رأوا النكبة ، و ماتوا محصورين و محسورين في هجرتهم.

[1] محمد جواد النوري ، جابشة و محمد بدارنة ، من أعلام الفكر و الأدب في التراث العربي ، مطبعة الشرق العربية ، القدس ، دط ، دت ، ص3 .

المرحلة الثالثة: الذين هاجروا و هم أطفال مدركون ، أو جاءت النكبة سنة 1948م و هم يسكنون في الجزء الذي لم يحتل من فلسطين (قطاع غزة و الضفة).

المرحلة الرابعة: الذين ولدوا بعد النكبة ، و شبوا في ظل الأمل و الوعد بالعودة ثم جاءت النكسة ، فهدمت كل ما بنوه بخيالهم ، و زاد ألمهم لأنهم اكتشفوا أنهم كانوا يعيشون أوهاما ، و أن أوهامهم أنبتت لها آمالا ، أو هي من بيت العنكبوت.

المرحلة الخامسة: الذين ولدوا بعد النكسة، أو قبلها بقليل و ترعرعوا في ظل ما سمي " المقاومة الفلسطينية " المتمثلة في الجبهات و المنظمات التي لا حصر لها، و معهم " منظمة التحرير الفلسطينية "

المرحلة السادسة: و هي طبقة متميزة زمانيا و جغرافيا : و هم شعراء فلسطين المحتلة سنة 1948م ، حيث بقيت قلة من العرب ، نشأ فيها شعراء ، متميزون في موضوعاتهم.. و أطلق غليهم " شعراء مقاومة " مقاومة بالكلمة، حيث قاوموا " العدمية " و اقتلاع الجذور.

و يميز طبقات شعراء فلسطين ، أن نسبة 99,9 من الشعراء قالوا في قضية فلسطين شعرا ، ولا نبالغ إذا قلنا إنّ 90 % من الشعر الفلسطيني يتناول قضية فلسطين ، و لا أعرف شعرا ملتزما ، التزم بقضية ، كما التزم الشعر الفلسطيني.[1]

و من ضمن تلك الطبقة لم ننس الأسرى في سجون الاحتلال ، فقد كان لهم في الشعر صولات و كتابات و دواوين و أبحاث كما في الميادين لهم جولات .«يشكل شعر الأسرى الفلسطينيين ، أنموذجا هاما من نماذج شعر المقاومة ، و ذلك لأن معظم أدباء فلسطين و شعرائهم سواء من داخل الأراضي الفلسطينية المحتلة في العام 1948م، أم من الأراضي المحتلة في العام 1967م، دخلوا السجون و المعتقلات الإسرائيلية ، و لم ينج شعراء المنفى من الملاحقة و الأسر في السجون العربية أو الأجنبية ، و لأن إسرائيل دولة احتلال ، قامت على فكرة جلب اليهود من كافة أصقاع الدنيا إلى فلسطين عبر أذرع الصهيونية العالمية ، و لأنها عنصرية الفكرة و قمعية التنفيذ، تقوم

[1] ينظر، محمد محمد حسن شراب ، شعراء فلسطين في العصر الحديث صور الماضي و الحاضر و استشراف المستقبل ، الأهلية للنشر و التوزيع ، الأردن ، لبنان ، ط1 ، 2006م ، ص 6 – 8 .

فكرتها على تشريد الشعب الفلسطيني ، لإحلال اليهود عبر إقامة مستوطنات ، تحاول أن تكون متصلة على انقاض شعب تآمرت عليه الدول الكبرى، في ظل عجز عربي عن التوحد و إعلاء صوت الحق و العدل ، لذا كانت فكرة السجون و المعتقلات فكرة مركزية لدى الحركة الصهيونية ، فكل موقع لجيش الاحتلال هو معتقل ، و كل مستوطنة هي مركز اعتقال ، عدا السجون المنتشرة في كل بقاع فلسطين التي تحولت بفعلهم من وطن حر ، إلى سجن كبير معزول ، أما السجون المركزية فهي من صنع المستعمرين الإنجليز ورّثها المستعمرون السابقون إلى المستعمرين اللاحقين.»[1]

لم يكن لحروف المقاومة أن تتجمع إلا على ثرى فلسطين، و لم يكن لثرى فلسطين أن يتجمع إلا بالمقاومة، على مرّ العصور السابقة و القرون الغابرة أحيت فلسطين انتصاراتها في كلّ معركة و مع اختلاف العدو، انتصارات كان لابدّ أن يحييها أيادي فرسان بالنهار رهبان بالليل و زنود تقويها كلمات تصور بطولاتهم و تمجيد تاريخهم و تسطر كرامة التاريخ الذي أهان العرب أحزان جفنيه .

سطر شعب غزة ثلاث معارك قوية قهر فيها الجيش الذي لا يقهر ، انطلقت أفواه القوافي على إثرها كأزهار تتمايل فرحا بالربيع ، قوافي أشعلت جماليات الشرف المقاوم و منحت قيادة لابدّ منها ، و دافعت عن شرف أمة بأكملها. القدس كانت الغاية و المال ، أجل تلك بوابة الأرض للسماء، طريق يعبر منه الشرفاء الشهداء لإحياء سبيل الجهاد لصون حياء مسرى الرسول صلى الله عليه و سلم ، « فلسطين مهبط الرسالات السماوية، و مسرى رسولنا الكريم صلى الله عليه و سلم، ملهمة الأدباء و الشعراء بما خصها الله عز و جل، من كونها أرض الرباط ، و ستبقى وعد المؤمنين بالنصر المبين ، و هي أرض المحشر و المنشر ، و لأن الجهاد على أرضها المقدسة مستمر حتى يوم القيامة، سيظل أهلها يبدعون في حمل الرسالة ، و لواء الجهاد ، و هم المقاومون و الشعراء و الكتاب ، و قضية فلسطين هي محور الإبداع ، من حملها و نصرها، أعزه الله تعالى ».[2]

[1] عبد الخالق العف ، أ. معاذ خلفي ، البواعث الموضوعية في شعر الأسرى الفلسطينيين ، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد السادس عشر ، العدد الأول ، جانفي 2008م ، ص 5 .

[2] نفس المرجع ، ص 2 .

فلسطين الأرض و الهوية و الأمانة و القضية، قضية على رأس كل حرّ شريف مقاوم بيده و لسانه و زنده و إيمانه، « إن قضية فلسطين ليست مجرد مشكلة قومية، على الصعيد العربي، أو أنها مشكلة اجتماعية، بالنسبة لأبناء فلسطين، و إنّما هي مأساة إنسانية عامّة، هي مأساة العنصريّة، أكبر وصمة عرفها التاريخ الحديث،لذلك أتصور فلسطين دائما نبعا لا ينصب من الأفكار و التجارب »[1]

« و قد كان الشعر و سيظل ، ديوان العرب ، الذي به يسطرون تاريخهم ، و يكتبون مآثرهم، و في العصر الحديث ، يصبح أدب المقاومة مدرسة أدبية و ثورية نضالية »[2]

كان لا مفر لكي ينال الشاعر و الروائي و الكاتب و الفنان شهرته و روعته أن يتغنى بفلسطين الوطن و الحبيبة ، فتعددت أشكال و أوزان و فنون الصور و الجماليات لتجسيد كل ذرة رمل على جناح هذه البلاد من شعر ماضي منذ قرون و حاضر للعيون، الشعر ثورة و يشعل ثورة في الحاضر و الغابر و القادم ، قال عزيز السيد جاسم: « إن الشعر الحديث قد قدم إسهاما ثوريا ، في عملية الخلق الفني ، و في تفجير الطاقات المخبأة ، و الأكثر وعيا لطبيعة حرية الإنسان ، و هو لم يقدم على تحطيم وحدة البيت ، فحسب بل إن وحدة التفعيلة نفسها ، بدت ليست المقياس الوحيد و المشروط للتعبير عن توتراته ، و نزعاته و بوحه المستمر بنداءاته ، لذلك فقد أضحى التطور الحاصل في القصيدة العربية ، ليس محاولة مجددة ، تعكس القديم ، بل اختيارا من خلال الضرورة في أن يتكافأ الحس و الموسيقى و اللغة و المعاني في وحدة واحدة »[3]

فالشعر أعواد الكبريت التي يصنعها الشعراء من أخشاب عباراتهم و يلقوها في صميم الشجاعة ، لكن المعين للأعواد هو المحيط بالشاعر من أجواء و أهواء و رصاص متطاير و صواريخ تقاتل و شعب يهاجم و قضية يدافع عنها بأحضان الملمين بالإيمان الملزم بالدفاع عن هذا دماء الشهداء و الأمناء ،كلّ ذلك و أكثر بكثير يدفع الشاعر ذا الإحساس الصادق لأن يكتب و يطير بأفكاره التي تندفع لإطلاق صاروخ الاحتفاء بالنصر قبل بدء المعركة ، قال عزيز السيد جاسم عن

[1] غالي شكري، شعرنا الحديث إلى أين ؟ دار الشروق ، القاهرة و بيروت ، ط1 ، 1991م ، ص 71 .

[2] عبد الخالق العف ، أ. معاذ خلفي ، المرجع السابق ، ص3 .

[3] عزيز السيد جاسم ، سمات نقدية في الأدب الحديث ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1995 م ، ص165 .

الشاعر و الثورة: « يستحيل الحديث عن الشاعر الثوري ، دون المرور بالتجربة الثورية لذلك الشاعر ، فالشاعر الثوري في حقيقته ليس الشاعر الذي يكتب أو يتحدث عن الثورة ، بل هو الشاعر الذي يعيش التجربة الثورية في حضور دائم و حار في ميدان المجابهات ، و التجربة الثورية عند الشاعر الثوري هي تجربة حياتية عامرة بالحب و التضحية ، فيما لو وعينا أن الحب الحقيقي هو الاستعداد الشامل للتضحية ، و شاعر التجربة الثورية هو محب ، متصوف كبير ، يعيش تخليا سخيا عن حياته ، ليحل في الثورة و تحل فيه »[1]

ليبدع الشعراء رواية قصائدهم و يبدع المقاتلون رماية قذائفهم كان لزاما أن يتقن الشاعر لغة شعره و أن يتقن المقاتل إعداد صاروخه ، مع استخدام طرق حديثة و قديمة و لكلا المجالين فينتج منتجا جديدا حثيثا ، من قوافي القدماء الجاهليين إلى بنادق العثمانيين ، و تكرير صياغة الأفكار ينتج أبوابا شعرية براقة تليق لوصف واقع مليء باللآلئ المشرقة ، و كذا الأمر كي تكون على قدر وصف براعة مقاومة على هذا التراب الطاهر في فلسطين و ضواحيها ، فيكون الشعر الحديث ضرورة، لمواكبة تطورات العصر الحضارية ، و ليس مشاكسة للقديم و معارضة له لمجرد المعارضة فحسب ، و بهذا الفهم يمسي التثوير الذي لحق ببناء القصيدة العربية ، امتدادا للإبداع ، و استثمارا للتراث الذي بقي مرتكزا هاما يصبح فيه الشعر الحديث معتمدا على التفعيلة ، التي هي نفسها تفعيلة مأخوذة من تراث بحور الخليل ، و يتم الاعتماد على الصدق و التجربة الشعرية ، و التركيز على اللغة ، و توسيع مفهوم الموسيقى إلى داخلية و خارجية ، فتتسع البنية الإيقاعية و تكبر القصيدة العربية بمضامينها ، و توسع أهدافها ، و تطور شكلها ، لتناسب العصر بتطور أغراضه ، و اتساع إيقاعاته ، و تشكل اتجاهات كثيرة جديدة ، و عندما نركز الحديث على الشعر الفلسطيني ، نجد التجربة الثورية التي رافقته ، هي التي دفعت به إلى آفاق جديدة ، لا الواقع و تتقوقع فيه إنما تأخذ من الرّحابة ما يتسع إلى التجربة القومية ، و بل و تطال التجربة الإنسانية بصدقها و تعبيرها ، و « لعل من الحق أن الشعر العربي الحديث يغلي باتجاهات جديدة كثيرة فيه ».[2]

[1] عزيز السيد جاسم ، سمات نقدية في الأدب الحديث ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، 1995 م ، ص 168 .

[2] شوقي ضيف ، الفن و مذاهبه في الشعر العربي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط2 ، 1993 م ، ص 516 .

لم يكن الشعر الفلسطيني مقطوعة أوصاله كما هي مقطوعة أمصاره ، بل كان الشعر من العصر الجاهلي مرورا بالأموي و العباسي و العثماني و الإسلامي و المعاصر مرجعا لشعراء فلسطين الميامين ، و ما كان شعر نظم دمعاته و نقاط حروفه احتفالا لقوافل الشهداء في معزل عن الشعر العربي القديم و الحديث ، بينما كان الشعب الفلسطيني قد عزله الوطن العربي لعظيم انجازاته المبهرة ذلك لا يعني فصل الأدب الفلسطيني عن الأدب العربي بل هو جزء لا يتجزأ منه لذلك لقد اتصل الشعر الفلسطيني ، بحركة الشعر العربي الحديث شكلا ، و رؤية، و جوهرا ؛ لأنه يستمد من معرفته بالتراث العربي ، و قدرته على توظيف التراث، روحا نضالية قوية ، لذا نجد شعراء المقاومة في فلسطين ، يتصلون بالتيارات الحديثة في شعرنا العربي المعاصر ، و يلجؤون إلى شعر التفعيلة ، و ينوعون في إيقاعاتهم داخل النص الشعري الواحد ، و قد وصف د.خليل الشيخ ملامح شعر المقاومة بالنقاط التالية :« التعلق القوي بالأرض ، التغني العميق بالحرية ، مع توعية الناس بالمخاطر التي تحاك ضدهم.»[1]

لم تقتصر مراحل الشعر المقاوم على شعراء شرّفوا شعرهم بانتصارات و معارك غزة الثلاث (الفرقان ، حجارة السجين و العصف المأكول) و لو دققنا لرأينا أن أسماء الحروب كان لها نسقا متتابعا كما جاء في آيات القرآن الكريم ، و كذلك شعراء المقاومة من 1948م إلى يومنا هذا يسمون شعراء مقاومة لما احتفت به سير حياتهم لحضور انتفاضات و حروب ميمونة فمن عاش على هذه الأرض لا يرضى الهوان و يستحق الحرية ، و لو أردنا أن نمعن النظر في تصنيف شعراء المقاومة الفلسطينية ، لوجدنا أنه تم تقسيمهم إلى ثلاثة أجزاء ، الجزء الأول الذي بقي داخل فلسطين المحتلة عام 1948م ، و قد تعرضوا للتجهيل و القمع الحضاري و الثقافي ، فحاولوا بمقاومتهم ، و أدبهم و أشعارهم ، و صمودهم فوق تراب أرضهم ، أن يستمسكوا بعروبتهم ، و الجزء الثاني : الذي بقي في الأرض المحتلة عام 1967م فتعرض للاضطهاد و القمع ، و لكنه بقي محتفظا بجزء من خصوصية ثقافته ة إبداعاته ، رغم ثقل حجم الاحتلال ، و اتساع مجونه و معتقلاته و سطوة قيوده ، و الجزء الثالث: الذي اضطر إلى الغربة و الابتعاد عن الوطن، فعاش غريبا يرجو العودة، رغم تلاحق

[1] خليل لشيخ و د نايف المجلوني ، نصوص شعرية ، منشورات جامعة القدس المفتوحة ، عمان ، ط1 ، 1997م ، ص 268 .

الانتكاسات العربية ، و لكنه اتصل بحركة التطور العربية الحضارية و الثقافية ، و رغم تلك الغربة و التهجير القسري ، و ذلك الشتات الذي أدى بالفلسطينيين إلى خلق البعد المكاني بينهم ، لم يستطع أن يبعدهم حضاريا أو أدبيا أو ثقافيا، لأنهم ينهلون من ذات المنبع، و لهم نفس الملهم و يوحدهم المصير نفسه، و فلسطين أمام عيونهم و في قلوبهم، رغم تفرقهم، فاتصلت ثقافتهم و إبداعاتهم، و تواصلوا أدبيا لنجدهم من أدباء المقاومة، في كل مكان انتقلوا إليه.[1]

[1] ينظر : عبد الخالق العف أ. معاذ حنفي ، البواعث الموضوعية في شعر الأسرى الفلسطينيين ، مجلة الجامعة الإسلامية (سلسلة الدراسات الإنسانية) المجلد السادس عشر ، العدد الأول ، جانفي 2008م ، ص4 .

المبحث الثالث : مميزات و خصائص شعر المقاومة .

إن الشعر مظهر من الكائن الإنساني فلا بد أن يتطور الحياة ويتقدم بتقدم الزمن والشعر الأصيل هو مولود عصره يعبر دائما عن أحوال المجتمع والأمة، وعلى الشاعر أن يتحدث عن آلام أمته، والأدب الفلسطيني كغيره من الآداب أخذ واقعا خاصا لصلته الوثيقة بالشعب الفلسطيني وقضيته، سواء أكان ما كتب داخل الأرض المحتل أم خارجها،لقد صور حياة الناس ومصائبهم. (في الوقت الذي كان فيه اهتمام العديد من الشعراء الكبار منصبا على شعورهم بالغربة واليأس، كان الوضع مختلفا في فلسطين المحتلة تدور أفكاره الرئيسية حول الشجاعة والاستبسال).[1]

بعد أن انطلقت المقاومة، بدأت نبرة الشعر تتغير وأصبح يعبر عن الحماسة وصار صرخة للغضب والمقاومة في كل مكان.

شعر المقاومة هو الشعر الملتزم الذي لا يكون في خدمة مصالح نظام حاكم مستبد ومتطلباته وهو ما يبين بلسان واضح دون الالتفات إلى الإبداع في مجال التخيل. لا تعقيد فيه، يصرح بالحقائق وينبه مخاطبيه وغيرها. ففي هذا البيان شعر المقاومة هو نوع من الشعر الملتزم وعلى هذا يجب أن يكون هادفا تعليميا و أن يبلغ رسالة الشاعر المهم فيه هو شعر يعلم مخاطبيه كيفية المواجهة أمام النظم المستبدة و أصول المقاومة أمامها.

أكثر أشعار المقاومة الفلسطينية مشتركة في ميزة واحدة وهي السهولة في الكلام والوضوح في الصور، يتحدث خالد علي مصطفي عن ميزات شعر المقاومة حيث يقول: «كان الشعر الفلسطيني واضح القصيد، واضح العبارة، لا يموه ولا يعاضل مهما كانت وجهته التعبيرية، إذ يكاد هذا الشعر يخلو خلوا تاما من التأملات الذهنية والغموض النفسي المحير، وشطحات الخيال العديد، والتساؤل المحض في معنى الحياة والموت، كما يخلو من غرابة التركيب اللغوي، أو التعقيد في بناء القصيدة».[2]

[1] اليسوعي، كامبل روبروت، مركز الدراسات للعالم العربي المعاصر، بيروت، ط1، ج1، 1966م، ص: 142.

[2] مصطفي خالد علي، الشعر الفلسطيني الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، بيروت، ط2، ج2، 1986م، ص: 42.

كما ذكرنا أن شعر المقاومة له خصوصية يختلف من بقية الأشعار لحد ما ويكمن هذا الاختلاف في مضمونه الذي قامت عليه حركة الشعر في الأرض المحتلة.هناك ثلاثة محاور رئيسية انتظم بها هذا المضمون على حد قول د. خالد علي مصطفي- وإن رأي البعض فيه ومحاور أخرى- «وهي المحور الوطني الذي يكشف عن التشبث بالأرض، وهو المحور القومي الذي يعبر عن الانتماء إلى الأمة العربية والمحور الإنساني الذي يجعل من حركة الكفاح الذي يخوضه الشعب جزءا من حركة تحرر عالمية».[1]

[1] مصطفي خالد علي ، المرجع السابق ، ص: 247.

خصائص شعر المقاومة :

الخصائص اللفظية :

كثرة استخدام المفردات الموحية، المتعلقة بالسماء وما فيها من نجوم وكواكب وبالأرض وما تحتويه من تراب وحجر وأشجار ونباتات، وخاصة تلك التي تنمو في فلسطين كالزيتون والليمون وغيرها.

ومن الأبيات التي احتوت على هذه المفردات هذه الأبيات لمحمود درويش من قصيدته – عن الصمود– تقول الأبيات:

لو يذكر الزيتون غارسه

لصار الزيت دمعا !

يا حكمة الأجداد

لو من لحمنا نعطيك درعا !

لكن سهل الريح

لا يعطي عبيد الريح زرعا ![1]

ومن ذلك أيضا هذه الأبيات للشاعرة دعد الكيالي من قصيدة لها بعنوان حنين تقول الأبيات:

وأسأل النجوم !

[1] محمود درويش ، الأعمال الأولى1، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت، لبنان ، ط1، 2005م، ص:48.

أسائل القمر

عن ملعبي هناك

وياسمينة

تضم أهلنا

في سمر السماء

أسائل القمر[1]

ومن ذلك أيضا هذه الأبيات وهي للشاعر سميح القاسم من قصيدة له بعنوان (أبي) فيقول:

وإني لأسأل نفسي وأسأل

وأسأل نفسي وأشقى وأضجر

ألم يكن العيش أنقى وأنضر؟ هل الصبح أصفر؟

هل الورد أعبر؟ ألم يكن الأفق أعلى وأرحب؟

ألم تكن الشمس أزهى وأقرب؟[2]

من أبرز الملاحظات التي تسجل على شعر المقاومة أن الشاعر يكثر من الحديث بصيغة الجمع المتكلمين (نا الفاعلين) بشكل كبير، والغاية من وراء ذلك أن المتحدث الشاعر إنما هو في النهاية متحدث بلسان قومه ومعبّر عن آلامهم وآمالهم، فيسعى للوصول إلى هؤلاء المتحدث بلسانهم

[1] دعد الكيالي، ديوان ولم تمطري يا غيوم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، دط، 1970م، ص: 137.

[2] سميح القاسم، الأعمال الكاملة، الجزء الثالث، دار السعاد الصباح، الكويت، دط، يناير 1993م، ص: 169.

كما أنه يرمي لإفهام الآخر أن هذا هو موقف الجموع وليس موقفا شخصيا، ومن الأمثلة على ذلك هذه الأبيات للشاعر توفيق زياد من قصيدته (هنا باقون) فيقول:

إنا هنا باقون

فلتشربوا البحر نحرس ظل التين والزيتون

ونزرع الأفكار كالخمير في العجين

برودة الجليد في أعصابنا

وفي قلوبن جهنم حمرا

إن عطشنا نعصر الصخرا

ونأكل التراب إن جعنا... ولا نرحل!!...[1]

وعلى هذا المنوال نسج محمود درويش في قصيدة له بعنوان (في انتظار العائدين) حيث يقول:

يا أمنا انتظري أمام الباب.إنا عائدون

هذا زمان لا كما يتخيلون..

بمشيئة الملاح تجري الريح..

والتيار يغلبه السفين!

ماذا طبخت لنا؟ فإنا عائدون

[1] توفيق زياد، مجموعة أشد على أياديكم، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص: 200.

نهبوا خوابي الزيت، يا أمي،وأكياس الطحين

هاتي بقول الحقل! هاتي العشب!

إنا عائدون![1]

الخصائص الفنية :

كثيرا ما يكون الأسلوب في شعر المقاومة واضحا وجليا لا يلجأ للغموض الذي ينفتح على قراءات أخرى، وذلك لأنه يسعى للوصول إلى أكبر عدد من الناس لتحريكهم والتأثير فيهم.

ومن الأمثلة على ذلك هذه الأبيات للشاعر سميح القاسم، وهي من قصيدة له بعنوان (السلام)، تقول الأبيات:

ليغن غيري للسلام

وهناك خلف حواجز الأسلاك في قلب الظلام

جثمت مدائن من خيام

سكانها..

مستوطنات الحزن والحمى، وسل الذكريات[2]

ومن ذلك أيضا هذه الأبيات للشاعر توفيق زياد وقد كتبها وهو سجين بسجن الرملة عام 1958م يقول فيها:

[1] محمود درويش، الأعمال الأولى1، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص:122.

[2] سميح القاسم، ديوان، دار العودة، بيروت، لبنان، دط، 1987، ص: 86.

سيعود شعبي في ضياء الشمس

من خلف الحدود

سيعود للظل المهدم

يتبينه من جديد

سيعود للأرض الحبيبة

للزنابق والورود

سيعود...

رغم النار والأغلال

خفاق البنود[1]

ما يميز شعر المقاومة أيضا غلبة روح التفاؤل، فبالرغم من أن ظروف الأمة قد تكون سيئة، وغير مبشرة، مثلما حصل بعد نكسة عام 1967م، إلا أن شعر المقاومة يبقى دائما يستشرق الأمل ليرسم نورا ولو خافتا وسط العتمة، ويحاول نقل هذا الإحساس للمتلقي لإشعاره بالأمل والاستبشار بالمستقبل، لإعادة الثقة فيه وفي قدرته على الفعل لتغيير الواقع.

ومن الأبيات التي حملت هذا المعنى قصيدة بعنوان (رد الفعل) لمحمود درويش يقول فيها:

وطني!يعلمني حديد سلاسلي

عنف النسور، ورقة الضفائل

[1] توفيق زياد، مجموعة أشد على أياديكم، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص: 41.

ما كنت أعرف أن تحت جلودنا

ميلاد عاصفة..وعرس جداول

سدوا علي النور في زنزانة

فتوهجت في القلب..شمس مشاعل

كتبوا على الجدران رقم بطاقتي

فنما على الجدران..مرج سنابل

رسموا على الجدران صورة قاتلي

فمحت ملامحها ظلال جدائل[1]

إن هذه الأبيات أبلغ دليل على قدرة شعر المقاومة على صنع التفاؤل، ونقل هذا الإحساس للمتلقي بصورة تامة.

ومن ذلك أيضا قصيدة (من وراء القضبان) وهي للشاعر توفيق زياد ومن مجموعته (أشد على أيديكم) يقول فيها:

ألقوا القيود على القيود

فالقيد أو هي من زنودي

لي من هوى شعبي

[1] محمود درويش، الأعمال الأولى1، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص:249.

ومن حب الكفاح، ومن صمودي

عزم.. تسعر في دمي

نارا على الحطب الشديد

يا طغمة أسقيتها...

كأس المذلة من قصيدي[1]

ما يميز شعر المقاومة كذلك، أنه شعر إنساني يرتفع عن الأنا الضيقة ليكون معبرا عن حالة عامة تلتقي فيها كل الحالات المتشابهة، التي تعاني من الظلم والاستعمار، لأنه شعر الجموع التي تناضل وتقاتل لنيل حريتها واسترجاع أرضها، وهذا النوع من الشعر يبقى بنفس قوته بلغته الأصلية لو تم ترجمته لأي لغة أخرى، لأن الحرية واسترجاع الأرض والنضال في سبيل ذلك ثقافة إنسانية وليست خاصة بثقافة معينة أو مقتصرة على أمة بعينها.

ومن أمثلة هذا النوع من الشعر هذه الأبيات لمحمود درويش وهي من قصيدة له بعنوان (مزامير) يقول:

يوم كانت كلماتي

تربة..

كنت صديقا للسنابل

يوم كانت كلماتي

[1] توفيق زياد، مجموعة أشد على أياديكم، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص: 37.

غضبا..

كنت صديقا للسلاسل

يوم كانت كلماتي

حجرا..

كنت صديقا للجداول

يوم كانت كلماتي

ثورة..

كنت صديق للزلازل[1]

[1] محمود درويش، الأعمال الأولى1، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص: 23-24.

المبحث الثاني : بواعث شعر المقاومة .

ينبثق الباعث و المحفز من المحيط الإيماني و الاجتماعي و السياسي و الثقافي و العاطفي و الوجداني الذي يسبب انصهارا في حبر أقلام العقول لينتج أدبا و شعرا يبعث على التقدم و بناء أبراج محصنة للمعنويات في سبيل الله و في سبيل إعلاء كلمة دينه و نصرة نبيه و قهر عدوه و تحرير المقدسات .

« إذا امتلك الشاعر القدرة على الإبداع ، و المزج بين عناصره ، بشكل فني جميل متكامل ، فإنه يحتاج إلى بواعث تفسر العملية الإبداعية لديه ، تكون هي الشرارات المتواصلة التي تفجر هذه العملية و تولدها ، و هذه البواعث تتبع من أطراف عديدة ، أهمها نفسية الشاعر و شخصيته المميزة، و البيئة التي يعيش في جنباتها ، و روح العصر الذي ينتمي إليه ، إذ أن لكل إنسان ظروفا حياتية ، و مؤثرات نفسية ، و صفات متأصلة في النفس ، تختلف عن الآخر ، كما أن لكل بيئة ظروفها الخاصة ، التي تنعكس على أبنائها المنتمين إليها ، و كذلك لكل عصر معطياته التي تختلف عن العصور السابقة و اللاحقة ، لذلك فإن كل إنسان يمتلك بصمات خاصة تطبع تصوره للكون و الحياة و الواقع المعيش .»[1]

إن كان ليس هناك مواقف تضخ السرور و أخرى يضمحل بها الشعور ، و عيون تبوح بما في الصدور و لقاء و فراق و هناء و عذاب و قتل و تدمير و تشرد و تحرير و تعمير و عودة فما قيمة ما يكتب في السطور ، إنها بواعث الإبداع ووظيفة الأدب في كل العصور .

« للأدب رسالة .. و للشعر رسالة ، و لعل من أهم رسائل الأدب المشاركة في الجانب النضالي لقضايا الأمة . و قد تيقظت الوطنية في الشعر العربي الحديث حتى أصبح الشعراء على اختلاف نوازعهم يشعرون أن من واجبهم تسجيل اهتزازات النفوس في مواجهة الأحداث الوطنية فتسابقوا إلى هذه الغاية و لكن من منطلقات مختلفة . فبعضهم جاءت أشعاره الوطنية باعثا على

[1] كمال أحمد غنيم ، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر ، مكتبة مديولي ، القاهرة ، ط1 ، 1998م ، ص 41.

الأمل عازما على تحقيق النصر أو الشهادة بقصائد ملؤها الحماس و روح التصدي ، و بعضها الآخر جاء معبرا عن حالة إحباط عامة و يأس عجوز و شعور بالضعف ، و الجانب الآخر ذهب لأبعد من ذلك فأصبح يجد راحة في جلد الذات ، و حينا جاءت القصائد بدافع شعور متأصل بالانهزامية و حينا جاء الأدب داعيا للانتفاضة ، أملا و منتظرا ميلاد قائد موحد للأمة في صورة صلاح الدين الأيوبي يوحد العرب و المسلمين و يحثهم على الجهاد ... كما تنوعت موضوعات التعبير في أدب المقاومة فمنها ما تناول موضوعات البطولة و منها ما جاء للتوعية بحيل المحتل و أساليبه الملتوية و منها ما جاء كمرثية أضاعها أبناؤها . »[1]

تقرأ فتفكر فتحلل فتسرح فتنفعل فتنهض فتكون النفسية و الهمة بقدر ما تحمل العبارات التي قرأت إن قرأت لشاعر شعر مقاوم فلن يولد في نفسك إلا أن تقوم ثائرا بروح لا يثنيها عدو و لا خائن .

« لعل روح المقاوم ، أبرز ما يزخر به هذا الشعر ، فالإتكاء و الإسناد إلى التاريخ ، غالبا ما يحمل إلى النفس ألق الماضي الذي يفرش عتمة الحاضر ضياء و طمأنينة ، ما يزرع و يلقي في الجلبة هدأة تفسح في المجال أمام بروز حالة الوعي ، التي تكتنف بدورها جلبة الحاضر و مأساوية مجرياته و أحداثه ، الأمر الذي يجعل من ضحايا العدوان ضريبة يتلقاها الأهلون المضحون ، لعلمهم أن تلك التضحيات ستشرئب كأعناق السنابل ذات نهار ، بعدما كانت حبوبا جافة لا تقوى على الديمومة إلا بفعل عناق الودق – النور للأرض . و هكذا دماء الشهداء تتسامى مطرا و شمسا نيرة ، تمازج تلك الأحداث و الجثامين في حضن الأرض ، فتنبعث من جديد صائتة متوهجة ، هازمة إرادة المتعدي الحاقد ، الذي أراد لها أن تضمحل في غيابة الموت و العناء العوسجي . »[2]

تنوعت بواعث الشعر المقاوم و تعددت و منها :

[1] داليا محمود الحديدي ، قدسيات أدب المقاومة ، المجلة العربية ، عدد 304 ، قطر ، 2008 م ، ص 82.

[2] مروان الخطيب ، الشعر المقاوم شرفه أن يقض مضاجع الخصم .. و يبني ، مجلة بلسم ، عدد 531 ، لبنان ، 2004 م ، ص 91.

1- القضية و اللجوء و الحنين للوطن :

نشأ الحنين من الغربة و الشتات و اللجوء ، حطم الحنين كل قسوة تترنح في زوايا القلب الذي دافع فقهر فتشرد فتحطمت كبريائه في الغربة و ترعرعت قضية تنشأ في النفس الفلسطينية كلما تقدم الطفل في عمره منذ الطفولة ، و تكون أقسى ما تكون عندما تكبر الوطنية مع نمو الطفل تكون حنينه و هو متشرد فكبر فيه الحنين و علا فيه الأنين و ما رأى يوما فلسطين .

« الابتعاد عن الوطن يؤزم الشاعر و يجسد له غربته الروحية ، و لذا فإن أكثر القصائد تعبيرا عن التعلق بالأرض هي التي تنظم في حالات الاغتراب و النفي .»[1]

إنها كهولة حب الوطن منذ نعومة أظافر قلوب أطفال ما عرفوا إلا الوطن ، و ما نطقوا إلا فداء للوطن ، و ما سجدوا لله ناصرهم إلا على ثرى هذا الوطن ، و إن بلغوا الثريا فما كتبوا إلا للوطن .

إن هناك شعبا يحتضن كل ذرة رمل تهجر منها لكن سيعود ، تحطم لكن سيقود ، تكسر لكن بقيت الدروب لم تصدأ دروب العز في زمن الضلال ، و إن تجاوزت الستين عاما ، يقولون عني لاجئ و حتما سأعود ، ينشرون كل يوم خيمة و الملاجئ يملؤون ، هكذا الشاعرة إيمان و هي في عمر الشباب و الأحلام و الأمان لكن كيف نحلم إلا بالوطن فنطقت أشعارها ثورة و ما كان منها سوى أن تستنطق الصمت ، فتقول :

قسما و ربي و الزمان سيشهد أني سأرجع للدروب أحرر

سأعظهم سأقول للزمن الذي قد مل صمتا في الظلام "تفجروا "

اتنان مع ستين عاما يا مدى نحيا بلا وطن نطوف و نعبـــــر

[1] منجي الشملي ، الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، دط ، 1982م ص 23 .

كيف التساوي بالقضية حينما يبقى المشرد في الأراضي يظفر

كيف التخلي عن بلاد تزهر كيف السكوت و مجدنا يتقهقر

قد عشت خمسين عاما في المدى و يقال عني لاجئ يتهجر[1]

صحيح يكتب الشعراء و تطرب الآذان لنداء الوطن الذي يضيء مشاعل الحياة ، لكن كل هذا قليل على ثوب الحنين عندما يكون ثوب الغربة مرقعا بالأنين ، الغناء الذي مهما بلغ لا يقلل من شأن الوطن و الحنين .

فإنه « غناء يمتد و يشجو و هي ساكنة الأوصال حتى كأنها لا تغني دون أن تحظ منها عين »[2] و مهما بلغت الأغاني ذروتها لا تشاركني الوطنية و لا تخفف ألم الغربة و ألم الحنين ، هكذا من تطول غربته خارج موطنه ليس له سوى العذاب فكيف و إن كان ذاك المغترب شاعر شاب يقول :

لا أحـــد يشاركـــــــني حنيـــــــــني

للبـــــــــــلاد و لا الأغـــــــانـي [3]

« بالنسبة للاجئ الذي انقطعت به الطرق المؤدية إلى الوطن السليب تتبدى صورة الأم و الأب و الأهل و الرفاق في سراب الرؤيا ، مترجرجة مطاردة غير مستقرة . إن الأرض هنا هي الألفة التي تربط الشاعر بهؤلاء الناس ، و ليس تمزقهم و انهيارهم سوى انعكاس لوقوع الأرض في يد الصهاينة ، و إجبار العرب على أحد الحلين الهجرة أو الاغتراب داخل فلسطين »[4].

[1] إيمان أبو شيحة ، نبض الياسمين ، رابطة الكتاب و الأدباء الفلسطينيين ، غزة ، ط1 ، 2012م ، ص 73 .

[2] محمد الطيب عبد النافع ، إبراهيم عبد الرحيم يوسف ، تاريخ الأدب و النصوص الأدبية ، مراجعة : منير البعلبكي ، مكتبة الوحدة العربية ، الشركة الوطنية للنشر ، بيروت ، دط ، دت ص 242 .

[3] محمد أبو نصيرة ، في كل سنبلة ، رابطة الكتاب و الأدباء الفلسطينيين ، غزة ، ط1 ، 2010 م ، ص 21 .

[4] منجي الشملي ، الأرض في شعر المقاومة الفلسطينية ، الدار العربية للكتاب ، تونس ، دط ، 1982 م ، ص 104 .

2- مدح المقاوم :

يظهر المدح الصادق عاطفة المادح و يظهر مدى تأثره بأخلاق الممدوح ، و يحاول إظهارها لتنتشر بين الناس ، و لا تكفي الكلمات لمدح و إثابة من يضحي بدمه و نفسه و روحه فداء لهذا الدين و الوطن ، و لكن الشعراء يجودون من الموجود .

و مع ديوان غربة للأديب عطا الله أبو السبح نجد أن تكرار الشاعر (هذي فوارسنا) للتأكيد و للفخر بنسب هذه الفوارس لنا ، ليست كأي فوارس ، إنها فوارس لا يقودها غير النبيل ابن النبيل ، خالد بن الوليد الذي دك خيبر ، و هذه الفوارس من نسل خالد و العدا من نسل خيبر ، فكما هزم خالد خيبر بإيمانه و صلابة جأشه فكذا سيهزم أبناء خالد أعداء الدين و الوطن ، يقول:

هذي فوارسنا تسير مع الذي قد دك خيبر قائدا و دليلا

هذي فوارسنا يعانق قلبها عبق الشهادة فاتحا و دليلا[1]

قليل ما تنحته فخامة الأبجدية عند وصف جلالة الناطقين بالأبجدية العرب الميامين الفرسان على خيولهم إنهم يحملون رايات ترفرف لتسطع بالنور الذي يزيل ظلام العدا ، أبدعت آلاء عبد ربه عندما قالت :

لن تكفي الفصحى و كل حروفها في وصف شهم قد أنار سما الوطن[2]

الأسير المحرر الشاعر علي عصافرة صدح من خلف القضبان و بعد رؤية ساحات النزال وصف الخيول قبل وصف من يقودها ، حتى ينبهر القارئ بالخيول فما يملك غير أن يقول هذه الخيول فكيف حال راكبها ؟ إنها ممزوجة بالحق رجال وهبوا أنفسهم و باعوا حياتهم لعزيز رحمن ،

[1] عطا الله أبو السبح ، غربة ، رابطة الكتاب و الأدباء الفلسطينيين غزة ، ط1 ، 2015 م ، ص 35 .

[2] ألاء عصام عبد ربه ، عزف على الأمواج ، رابطة الكتاب و الأدباء الفلسطينيين ، غزة ، ط1 ، 2012 م ، ص35 .

باعوا و اشترى ، فما كان لذاك الخيل و راكبه و ساحة نزال تتعفر أقدامه بترابها سوى الربح في القتال و الجنان و الحسان فربح البيع يا رجال ، يقول :

إن الكرام خيولهم مسروجة إن يدع داع للفداء تفدت

متوثبون إلى النزال فمن يرد بغيا بهم يلق الأعنة شدت

يلق الرجال كتائبا و عتادها حب المنون و أنفس لم تبهت[1]

3- مدح نخوة العربي :

الكرم الشهامة الشرف الشجاعة المهابة الرزانة الرصانة كلها صفات تختصر في كلمة واحدة إذا ذكرت ذكر العربي المسلم ، عربي لا ينطلق لعالم الموت إلا بعد ما يكون قد حط على سقوف الحياة بطولات ثم إذا انطلق فلا يذهب وحيدا إنما تزينه عيون أمه التي تسطر بصبرها و توديعها فلذة فؤادها بهذه النخوة و الرجولة لا يكون حليفه إلا النصر ، « ليس الفرق غالبا بين الأدب الرائع و الأدب العادي إلا فرقا في قوة الابتداع التخيلي .»[2] و هكذا تخيلت هذه الصورة فرسمت بهذه الأبيات التي ينتابها حنان الأم و ولعها على ابنها عند البحث عنه في صفوف الجيش لتضمه بين حنايا قلبها و

بين الحنان على الوطن من العدو الذي دفع بها للدفع بابنها للدفاع عن الوطن و الشرف ، الشاعرة عفاف الحساسنة تقول :

هـــــو العربـــــي لا يـــودع قبلمـــــــا

يدق على جليد الأساطير وشمه

[1] علي عصافرة ، الضوء و الأثر ، رابطة الكتاب و الأدباء الفلسطينيين ، غزة ، ط1 ، 2012 م ، ص6 .

[2] أنيس المقدسي ، الفنون الأدبية ، و أعلامها في النهضة العربية الحديثة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط3 ، 1980 م ، ص 327 .

يرى وهو خارج إلى الحرب

أيكة

ومن عين نجم غيظ

ترقيه أمة

على ريح كفيه الحبيبة علمت

ومن بين صف الجيش

كيف تضمه[1]

4- استنهاض الهمم :

على الشاعر أن يؤمن بما يكتب قدوة بعلمه قبل لسانه، إن كان كذلك كان الاستدعاء لكتابته في اشتداد الأمر لرفع الهمم واعتلاء القمم، وعليه أن ينهض قبل أن تنهض أفكاره لاستنهاض الآخرين بالإيمان والالتزام والثقة بالوعد المكتوب، وإلا فلا داعي لما يكتبه، فالشاعر له تجربة ومواقف شاهدها وعايشها من خلال المجتمع المحيط، «يشكل الشاعر من خلاله تجربته صورة الواقع، ويحاول أن يغرس الوعي بهذا الواقع لدى المتلقي، وجميع معطياته التي يطرحها تقوده مع المتلقي إلى نتيجة حتمية، هي الثورة المبنية على تقطع السبل، والنابعة من شدة الحصار المفروض، حيث إن الضغط لا يولد إلا الانفجار، والهروب من هذا الواقع يلتقي بمعاني الاستحالة، فالهجرة قد تحدث في زمن يجد فيه النبي صحابة، وأنصارا وكهفا يلجأ إليه، وحمامة وعنكبوت، لكن الهجرة في هذا العصر هي الموت، فليكن موتا مشرفا يقوم على الثورة والسير نحو التغيير.»[2]

[1] عفاف الحساسنة ، بعدي و ما قبل انتهائه ، رابطة الكتاب و الأدباء الفلسطينيين ، غزة ، ط1 2012 م ، ص 37 – 38 .

[2] كمال أحمد غنيم ، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط1 ، 1998م ، ص 327 .

كلمات الشاعرة سمية في عمر الزهور لكن في وطنها كجذور الأشجار المعمرة، ولذلك « لكل نوع من المعنى نوع من اللفظ هو به أخص و أولى وضروبا من العبارة هو بتأديته أقوم، وهو فيه أجلس، ومأخذا إذا أخذ منه كان إلى الفهم أقرب، وكان السمع له وأوعى، والنفس إليه أميل.»[1]

وهذا ما يرى بكلمات الشاعرة، حيث تستدعي لفظة واحدة للتخلص من موت القلوب، الوجع، الضجيج، المهالك، الضياع والمرار، ويدل على أنه يراد مخرج ولو بسيط وقيس صحوة للتخلص من هذه العذابات، (وأعد تباشير الندى) وقفت الشاعرة في اختيارها لكلمة الندى التي تتناسب جوا ولفظا وعمقا مع لفظة تباشير، فالندى «ندى الأرض وندى الجود»[2] تقول:

يا عالما للموت ضيعت الطرائق والمسالك

فلتتضح كل الرؤى ..

اثبت دقائق

كي نعاود صحوة لقلوبنا ،

و نعالج الوجع المغمس بالضجيج

و بالمهالـــــــــــــــــك ..

و أعد تباشير الندى ..

و ارفق بقصتنا المريرة[3]

[1] عبد القاهر الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، علق عليه ، محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، ط3 ، 1998 م ، ص327 .

[2] أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة ، أدب الكاتب ، تحقيق محمد الدالي ، مؤسسة الرسالة ، سوريا ، ط2 ، 1985 م ، ص297 .

[3] سمية عصام وادي ، لو يظمأ السفر ، رابطة الكتاب و الأدباء الفلسطينيين ، غزة ، ط| 1 ، 2012 م ، ص 87 .

تستنهض الشاعرة آلاء عبد ربه الأمة بالانتفاض الذي ليس حليفه سوى الانتصار و خصصت الأحفاد و كأن الأجداد صنعوا البطولات و قضوا فلينهض الأحفاد لجني ثمار النصر و العز، ألم الشاعرة و الذي هو ألم الشعب يزال بمجرد أن يرى رص صفوف المجاهدين سراه المجد كالأقمار ، فإنه كما يقال « إنما يزيدك الطلب فرحا بالمعنى و أنسا به ، و سرورا بالوقوف عليه إن كان لذلك أهلا »[1] الطلب بالأبيات للانتفاض و ارتصاص الصف هو طلب يبعث السرور و إن كان باطنه عذاب و قتل و فقد ، فقالت :

يا أمة قومي و انتفضي فالنصر ينادي أحفادي

يدعوهم كي يقفوا صفا ليزيلوا ألمي و ضمادي

سنسير الليل لكي نلقى نور الأقمار المتهادي [2]

تقاس قوة الشعر بدقة الوصف و التصوير بتأثير البيئة ، فالشاعرة في جزالة المعنى كشعراء العصر

الجاهلي ، فكأنما شاعرتنا الحساسة ترفع الهمم بتصوير مواقف العذاب بأنا صبرنا على الموت و التشريح فلما لا نصبر على الاحتفاظ بقوة الطهارة ، و لو استخدمت ألفاظ لا تحزن لكان أولى في الوصول لبغية شعرها و لكن ما تراه و تلقاه و شعبه من عذاب و قهر و ظلم أنطقها بالشعور الحزين لكون ذلك أثر بيئتها المعذبة عليها ، فقال :

لنبقى لقوت الطهارة طعما

و نغدو لوجه المدى رائحة

[1] عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، علق عليه : محمود محمد شاكر ، دار المدني ، جدة ، ط1 ،1991م ، ص142 .

[2] ألاء عصام عبد ربه ، عزف على الأمواج ، رابطة الكتاب و الأدباء الفلسطينيين ، غزة ، ط1 ، 2012 م ، ص158 .

على جمرة الموت حيث ولدنا عراة

ننز عطاء إذا شرحونا

نفوح بقاء إذا مزقونا [1]

5- دعوة للوحدة و الاتفاق بين الأحزاب الوطنية :

قلت مهابة العدو للعرب بسبب التفرقة الحزبية و الفئوية يقتل و يدمر و يستوطن و يسيطر في البلد الواحد فغدا يذهب و يجيء و يبني و يسيطر و الأحزاب تدعي الوطنية و الوطن في ضياع ، و بالتالي قل العلم و انشغلوا عن الجهاد و العتاد و الشعر بالتشتت ، قيل « قلت المكاتب الكبرى لذهاب أكثرها حرقا و غرقا في أثناء الفتن ... بسبب التنازع بين الفرق الإسلامية »[2] هكذا يضيع التراث الفكري و الوطني بعدما كان في أبهج ازدهاره ، و ما سوى جهل ، حيث « يلقي التخلف بظلاله على العديد من المشاكل الاجتماعية ، منها ذلك التمييز البغيض الذي يمتد على أكثر من مستوى ، ما بين مذهب و مذهب ، و ما بين فقير و غني ، و ما بين أسود و أبيض . »[3]

دعوة و استنهاض للرحمة الأخوية بالاتفاق و الصحو ، فالأرض تئن و القدس تحتضر ، حيث قال الشاعر – و يلحظ الأسى و التحسر و التكسر في الكلمات :

و لنتفـــــــــــــــــــــــــــق

هل نفتـــــــــــــــــــــــــرق ؟

و الأرض تصـــــــــــــــــــرخ

[1] عفاف الحساسنة ، بعدي وما قبل انتهائه ، رابطة الكتاب و الأدباء الفلسطينيين ، غزة ، ط1 ، 2012 م ، ص36 .

[2] جرجي زيدان ، تاريخ آداب اللغة العربية ، ج2 ، دار مكتبة الحياة ، لبنان ، دط ، 1983 م ، ص 119 .

[3] كمال أحمد غنيم ، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط1 ، 1998 م ، ص 92 .

تحت أنيـــــاب الحديد يشــقها

و القـــــــــدس تهـــــــوي

في فــم الفـــــول الكبير و تختنق

و لنتفـــــــــــــــــــــق

يبقـــــى الوفـاق بشـــــرعنا

هـــــو شـــــعلة نحتاجـــــها

عنـــد الخروج مـــــن النفق[1]

من يحمل السلاح حمل قبله الفكر و العقيدة و الدفاع عن دين محمد صلى الله عليه و سلم ، و بهذا يكون حملة البارود و الصاروخ و أحفاد المجاهدين على بينة و صواب لا على هوى و تعصب و اعتصار للكرامة و ضياع لدروب الأطهار تقول الشاعرة آلاء عبد ربه :

يا من حملتم في القلوب رسالة كان الرسول لأجلها يتضرع

ما للقلوب تراجعت عن حملها ؟ و كأنما عافت رسالة من وعوا

ظني بكم خيرا رفاق دروبنا يا من بكم رأس الكرامة ترفع

لا تيأسوا إن ضاقت الأيام أو إن أفسدوا ما بينكم و تصارعوا [2]

6- شكوى الحصار و الانكسار و ضياع الوطن :

[1] عبد الكريم العسولي ، أغاريد النوراس ، فلسطين ، ط1 ، 2011 م ، ص 94 .

[2] آلاء عصام عبد ربه ، عزف على الأمواج ، رابطة الكتاب و الأدباء الفلسطينيين ، غزة ، ط1 ، 1991 م ، ص 58-59 .

لم يقتصر الحصار الذي طال الشعب على تقييد حرية المأكل و المشرب و العمل و التنقل ، بل تكميم للأفواه ، إلا أن الشعراء تنطلق مشاعر فوهات أشعارهم رغم التكميم و رغما عن التقييد ، فهو اللسان الناطق بحال الشعب و القوم و الوطن و بيئته قبل التعبير عن حال نفسه . و بذلك « يعيش الشاعر في مجتمع حي له مشاكله و همومه و تطلعاته ، يتبادل معه التأثير و التأثر ، و يسعى إلى حل مشاكله و الوصول إلى الوضع الحياتي الأمثل ، و خصوصا إذا كان المجتمع يعاني من وطأة التخلف في شتى الميادين ، و هو إن كانت القضية السياسية تكمن في بؤرة اهتمامه ، لا يستطيع أن يتناسى مشاكله الاجتماعية المتفاعلة طرديا مع هذه القضية .»[1]

تتحدث الشاعرة سمية عن واقع وطني تنتمي له و ينتمي إليها ، و بكل فنون الشعر التي تكتب كان الإحسان يزين شعرها سوى الكتابة عن الواقع و الوطن فهذا موضع لا إحسان فيه بجانب الغموض الذي عرفه أبو اسحاق الصابي : « إن طريق الإحسان في منثور الكرم يخالف طريق الإحسان في منظومه ، لأن الترسل هو ما وضح معناه ، و أعطاك سماعه في أول وهلة ،و أفخر الشعر ما غمض فلم يعطك غرضه إلا بعد مماطلة »[2] ، و بهذا فإن هذه الكلمات التي تختصر واقعا لا حنين فيه سوى لكسر الصمت الذي حطم الشرف العربي و ضيع القدس العربية ، قالته في كلمة الضمير الدفين ، « امتازت لغتها بالروعة الفنية فكانت خير صلة بينه و بين قارئها ، تؤدي ألفاظها مهمتها في التعبير عما تحسه و تتصوره »[3] فقالت :

أتذكرها ساعة الانتظار

مضت .. و استرحنا

و جئنا بكم

[1] كمال أحمد غنيم ، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط1 ، 1998 م ، ص 83.
[2] بطرس البستاني ، أدباء العرب منتقيات ، دار الجيل ، دار مارون عبود ، بيروت ، ج1 ، 1979 م ، ص106 .
[3] نفس المرجع ، ص 106 .

كي تتم بطلعتكم

في ربوع البلاد

صفوف الجميع

تغيب أيا دفة الخائفين ..

تغيب ..؟

تغيب و تتركنا في الهجير

نقاوم زلزال هذي السنين ؟

تغيب أيا لغة المتعبين ..

و دون انتظار ،

تؤرخ موت الضمائر فينا ..

و نحن ضحايا الضمير الدفين [1]

لم يبق في الوطن سوى الهدية و أطلال الدمار و التشرد ، ففي العصر الحالي عصر الحروب و الانتفاضات لم يعد الشعر يذهب بذهاب الوطن بل لعله كان من سبل استرجاع الوطن ، و عودة من سموا لاجئين و هم مظلومون متشبثون بحق العودة ، متمسكون بالثوابت ، تقول الشاعرة أمل أبو عاصي :

لا شيء غير مواطن بهوية

[1] سمية عصام وادي ، لو يظمأ السفر ، رابطة الكتاب و الأدباء الفلسطينيين ، غزة ، ط1 ، 2012 م ، ص 142 .

للبيع

للتوزيع

للإيجار

لا شيء

غير العتم يحرق ضوئنا

لا شيء

غير الأرض

تسرق حلمنا

و تكون – حين تكون – للإيعار

في حضنها الأغراب

تمنحهم سما

و أنا اللجوء

بخيمة من نار ،

و ترشهم عسل اللقاء

و لم أزل بالجوع أقتل

و التشرد داري [1]

7- حب الوطن و التغني بالقدس :

ينطق اللسان بما في القلب ، و إن كانت القدس في القلب فهي على لسان الشعراء أهازيج و أغاريد ، « لقد ارتبطت عاطفة الشاعر و وجدانه بقضايا أمته ، لهذا اتسمت بالحزن النابع من مآسي الفرد و المجتمع و الأمة ، و قد امتزجت عاطفة الحزن بالغضب و الأمل المكابر ، و قد أظهرت هذه العواطف عمق اتصال الشاعر بوطنه ، و ارتباطه ارتباطا وثيقا ، لكن قضية المرأة و الحب تراجعت عند الشاعر ، لأنه يبلور بشعره و نضاله شخصية الفدائي الذي يحمل روحه على كفه ، مطاردا بين البلاد ، مضحيا باستقراره و حبه ، مبعدا عن وطنه الحبيب ، و لهذا فقد برزت عاطفة الغربة و الحنين إلى هذا الوطن الممزق الدامي .»[2]

عروس العواصم و زهرة المدائن و شرف الأمة لا يساوم عليه سوى متخاذل ، إنها القدس أولى القبلتين و ثالث الحرمين الشريفين « تعد مدينة القدس عاصمة فلسطين من المدن المهمة التي نالت حظا و شهرة ضمن المدن العربية و الإسلامية عبر التاريخ ، نظرا لمكانتها الدينية و السياسية و الحضارية و الثقافية ، و كذلك مكانتها الأدبية بين الكتاب عامة ، و الشعراء خاصة ، كيف و هي بوابة الأرض إلى السماء ، و أولى القبلتين ، و ثالث الحرمين الشريفين ، و نعني بذلك المسجد الأقصى درة القدس ، و مسرى الرسول محمد صلى الله عليه و سلم . دخلها الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، و صلاح الدين فاتحين ، و اليوم ترزخ المدينة و مسجدها الأقصى تحت ظلم الاحتلال و تهويدها ، لذلك كله و أكثر بكثير ارتأى من الواجب الديني ، و الأخلاقي »[3] أن يسهم الشعراء بحب الوطن و القدس بألحان عباراتهم و تجليات كلماتهم . « لقد جاءت قصائد

[1] أمل أبو عاصي (اليازجي) ، أربعة فصول للضباب ، دار القمري ، فلسطين ، ط1 ،2015م ، ص64 .

[2] كمال أحمد غنيم ، عناصر الإبداع الفني في شعر أحمد مطر ، مكتبة مدبولي ، القاهرة ، ط1 ، 1998 م ، ص 94 .

[3] بشار أبو بشير ، صورة القدس في الشعر الفلسطيني المقاوم ، ديوان يا أمة القدس أنموذجا ، مؤتمر القدس تاريخ و ثقافة ، فلسطين ، دط ، 2011 م ، ص70 .

القدس ، و كأنها اتفاق مسبق بين شعراء و أدباء الأمة على تقديم إبداعهم من أجل مواصلة النضال ضد الوجود الإسرائيلي بهذه القصائد ».[1]

كما تغنت الشاعرة سمية وادي بالقدس في موكب من الكلمات الشافية ، إن القدس مهما اشتدت خطوبها لن تضيع مازال هناك كلمات شاعرة تجعلها الأغنية المتردد صداها في الطفولة و الشباب و الكهولة و الحاضر و الفجر و الذكرى و مرآة العين و روح القلب و فداها كل من هب و دب على ثرى الأرض ، تقول :

أتيت أغني القدس فجرا يسرني و ما بعد فجر القدس شيئ يسرني

أتيت و ذكرى في الخيال تعمها و شوق محب لا يمل

عصي على الإذلال أضناه بعدها و سور علاها شائك ليس

أراها كجفن الذابلين و كانت كظبي في المنام تزورني

أراها بظل العابرين و يحفظها في الصدر قاص و مدني

تنام على الأهداب في الصدر في و في كل حرف في القصيد

و للعين مرآها و للقلب و في الروح سكناها ، و في الأرض

أطاردها مذ كنت طفلا بحبها لأحيا و تنسيني العنا مذ [2]

8- خيانة الصمت العربي :

[1] داليا محمود الحديدي ، قدسيات أدب المقاومة،المجلة العربية ،عدد 304 ، قطر ، 2008 م ، ص 83 .

[2] سمية عصام وادي ، لو يظمأ السفر ،رابطة الكتاب و الأدباء الفلسطينيين ،غزة ، ط1 ،2012 م ،ص 150 .

قد يحمد الصمت إلا مع الأعداء و قد يحسن إلا من العربي الذي أبدل صفة الشجاعة بالمهانة و الكرامة بالإهانة و الذي ظلم الخيل في هذا الصمت حين قالوا عنه الخيل العربي الأصيل ، صمت مهين مريب جبان فبدلا من أن يصمت العدو من خزيه و عاره أصبح يصمت العربي لخوفه .

توجه الشاعرة سمية وادي للعرب مبررات لصمتهم و ظلمهم و خذلانهم لعروبته لكنها مبررات على سبيل السخرية منهم و تحمل في سهام كلماتها دفاعا عن قضيتها ، فلم تتوجه لهم بالسؤال فهي لا تنتظر منهم جوابا بل بدأت عباراتها بالنفي المدافع عن شرف القضية ، و بالتالي توجه لهم رسالة ملؤها التحدي و الفخر بأنا لا نريد منكم نجاة و نداوي جرحنا وحدنا فنحن نضمد و أنتم تجددون الجرح و تصفهم بصفات تنفيها عن شعبها الصامد ، كما ذكرت بعض الظلم الذي يسببه العرب بصمتهم و خذلانهم بأنا نضحي و نضحي و نقدم الشهداء و الدماء بلا عزاء و بعد ذاك تحولون هذه التضحيات و الجولات لاتهامات بالعنف و الإرهاب و كأننا نجلب لكم العار و أنتم العار بذاته ، لذلك كان أجدر أن تحب القهر رغما عنها ، فقالت :

نحن لم نغرس بنادق عنفنا في عدلكم ..

نحن أشهرنا سيوف صباحنا

قي ليلكم هذا القبيح

نحن قمنا كي نداوي جرحنا

فأقمتم فوقه كل الجروح

نحن ما كنا قضاة في المحاكم

إنـــــــــــــــــــــتما ..

نعرف الذابح منا و الذبيح

فاخرجوا يا لعنة التاريخ من أقدامنا

كي نستريح

لم أحب القهر يوما يا بلادي

لم أحبه

كلما يممت نحو الحب

خانتني المحبة

أي أرض هذه ..

تقتات من أرواحنا ،

و تكفن الأموات دون نهاية

و تحيل قصتنا مسبه [1]

العروبة كانت عزة و منعة و قوة و أصبحت سما و ذلا و خذلانا كانت تتبع الدين و تجبر الكسير أصبحت تكسر الجبير و تتبع الهوى و العدا ، كانت فتفانت كل أوصافها التي كانت ، فصورت الشاعرة ذلك بألفاظ يشيع فيها الحزن و الأسى و اليأس من إتباع العرب الذل ، تقول الشاعرة أمل أبو عاصي :

ظنت و بعض الظن سم قاتل

أن العروبة عزة و تفان

[1] سمية عصام وادي ،المرجع السابق ، ص 111- 112 .

أن العروبة إن عرت ستلمها

بفؤادها المخضل بالإحسان

ظنت و أهل الذل أشبعهم هوى

درجوا على الأذعان و الخذلان[1]

[1] أمل أبو عاصم (اليازجي) ، أربعة فصول للضباب ، فلسطين ، ط1 ، 2015 م ، ص 38 – 39 م .

المبحث الثالث : مميزات و خصائص شعر المقاومة .

إن الشعر مظهر من الكائن الإنساني فلا بد أن يتطور الحياة ويتقدم بتقدم الزمن والشعر الأصيل هو مولود عصره يعبر دائما عن أحوال المجتمع والأمة، وعلى الشاعر أن يتحدث عن آلام أمته، والأدب الفلسطيني كغيره من الآداب أخذ واقعا خاصا لصلته الوثيقة بالشعب الفلسطيني وقضيته، سواء أكان ما كتب داخل الأرض المحتل أم خارجها،لقد صور حياة الناس ومصائبهم. (في الوقت الذي كان فيه اهتمام العديد من الشعراء الكبار منصبا على شعورهم بالغربة واليأس، كان الوضع مختلفا في فلسطين المحتلة تدور أفكاره الرئيسية حول الشجاعة والاستبسال).[1]

بعد أن انطلقت المقاومة، بدأت نبرة الشعر تتغير وأصبح يعبر عن الحماسة وصار صرخة للغضب والمقاومة في كل مكان.

شعر المقاومة هو الشعر الملتزم الذي لا يكون في خدمة مصالح نظام حاكم مستبد ومتطلباته وهو ما يبين بلسان واضح دون الالتفات إلى الإبداع في مجال التخيل. لا تعقيد فيه، يصرح بالحقائق وينبه مخاطبيه وغيرها. ففي هذا البيان شعر المقاومة هو نوع من الشعر الملتزم وعلى هذا يجب أن يكون هادفا تعليميا و أن يبلغ رسالة الشاعر المهم فيه هو شعر يعلم مخاطبيه كيفية المواجهة أمام النظم المستبدة و أصول المقاومة أمامها.

أكثر أشعار المقاومة الفلسطينية مشتركة في ميزة واحدة وهي السهولة في الكلام والوضوح في الصور، يتحدث خالد علي مصطفي عن ميزات شعر المقاومة حيث يقول: «كان الشعر الفلسطيني واضح القصيد، واضح العبارة، لا يموه ولا يعاضل مهما كانت وجهته التعبيرية، إذ يكاد هذا الشعر يخلو خلوا تاما من التأملات الذهنية والغموض النفسي المحير، وشطحات الخيال العديد، والتساؤل المحض في معنى الحياة والموت، كما يخلو من غرابة التركيب اللغوي، أو التعقيد في بناء القصيدة».[2]

[1] اليسوعي، كامبل روبروت، مركز الدراسات للعالم العربي المعاصر، بيروت، ط1، ج1، 1966م، ص: 142.

[2] مصطفي خالد علي، الشعر الفلسطيني الحديث، دار الشؤون الثقافية العامة، بيروت، ط2، ج2، 1986م، ص: 42.

كما ذكرنا أن شعر المقاومة له خصوصية يختلف من بقية الأشعار لحد ما ويكمن هذا الاختلاف في مضمونه الذي قامت عليه حركة الشعر في الأرض المحتلة.هناك ثلاثة محاور رئيسية انتظم بها هذا المضمون على حد قول د. خالد علي مصطفي- وإن رأي البعض فيه ومحاور أخرى- «وهي المحور الوطني الذي يكشف عن التشبث بالأرض، وهو المحور القومي الذي يعبر عن الانتماء إلى الأمة العربية والمحور الإنساني الذي يجعل من حركة الكفاح الذي يخوضه الشعب جزءا من حركة تحرر عالمية».[1]

[1] مصطفي خالد علي ، المرجع السابق ، ص: 247.

خصائص شعر المقاومة :

الخصائص اللفظية :

كثرة استخدام المفردات الموحية، المتعلقة بالسماء وما فيها من نجوم وكواكب وبالأرض وما تحتويه من تراب وحجر وأشجار ونباتات، وخاصة تلك التي تنمو في فلسطين كالزيتون والليمون وغيرها.

ومن الأبيات التي احتوت على هذه المفردات هذه الأبيات لمحمود درويش من قصيدته – عن الصمود– تقول الأبيات:

لو يذكر الزيتون غارسه

لصار الزيت دمعا !

يا حكمة الأجداد

لو من لحمنا نعطيك درعا !

لكن سهل الريح

لا يعطي عبيد الريح زرعا ![1]

ومن ذلك أيضا هذه الأبيات للشاعرة دعد الكيالي من قصيدة لها بعنوان حنين تقول الأبيات:

وأسأل النجوم !

[1] محمود درويش ، الأعمال الأولى1، رياض الريس للكتب والنشر ، بيروت، لبنان ، ط1، 2005م، ص:48.

أسائل القمر

عن ملعبي هناك

وياسمينة

تضم أهلنا

في سمر السماء

أسائل القمر[1]

ومن ذلك أيضا هذه الأبيات وهي للشاعر سميح القاسم من قصيدة له بعنوان (أبي) فيقول:

وإني لأسأل نفسي وأسأل

وأسأل نفسي وأشقى وأضجر

ألم يكن العيش أنقى وأنضر؟ هل الصبح أصفر؟

هل الورد أعبر؟ ألم يكن الأفق أعلى وأرحب؟

ألم تكن الشمس أزهى وأقرب؟[2]

من أبرز الملاحظات التي تسجل على شعر المقاومة أن الشاعر يكثر من الحديث بصيغة الجمع المتكلمين (نا الفاعلين) بشكل كبير، والغاية من وراء ذلك أن المتحدث الشاعر إنما هو في النهاية متحدث بلسان قومه ومعبّر عن آلامهم وآمالهم، فيسعى للوصول إلى هؤلاء المتحدث بلسانهم

[1] دعد الكيالي، ديوان ولم تمطري يا غيوم، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، دط، 1970م، ص: 137.

[2] سميح القاسم، الأعمال الكاملة، الجزء الثالث، دار السعاد الصباح، الكويت، دط، يناير 1993م، ص: 169.

كما أنه يرمي لإفهام الآخر أن هذا هو موقف الجموع وليس موقفا شخصيا، ومن الأمثلة على ذلك هذه الأبيات للشاعر توفيق زياد من قصيدته (هنا باقون) فيقول:

إنا هنا باقون

فلتشربوا البحر نحرس ظل التين والزيتون

ونزرع الأفكار كالخمير في العجين

برودة الجليد في أعصابنا

وفي قلوبن جهنم حمرا

إن عطشنا نعصر الصخرا

ونأكل التراب إن جعنا... ولا نرحل!!...[1]

وعلى هذا المنوال نسج محمود درويش في قصيدة له بعنوان (في انتظار العائدين) حيث يقول:

يا أمنا انتظري أمام الباب.إنا عائدون

هذا زمان لا كما يتخيلون..

بمشيئة الملاح تجري الريح..

والتيار يغلبه السفين!

ماذا طبخت لنا؟ فإنا عائدون

[1] توفيق زياد، مجموعة أشد على أياديكم، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص: 200.

نهبوا خوابي الزيت، يا أمي،وأكياس الطحين

هاتي بقول الحقل! هاتي العشب!

إنا عائدون![1]

الخصائص الفنية :

كثيرا ما يكون الأسلوب في شعر المقاومة واضحا وجليا لا يلجأ للغموض الذي ينفتح على قراءات أخرى، وذلك لأنه يسعى للوصول إلى أكبر عدد من الناس لتحريكهم والتأثير فيهم.

ومن الأمثلة على ذلك هذه الأبيات للشاعر سميح القاسم، وهي من قصيدة له بعنوان (السلام)، تقول الأبيات:

ليغن غيري للسلام

وهناك خلف حواجز الأسلاك في قلب الظلام

جثمت مدائن من خيام

سكانها..

مستوطنات الحزن والحمى، وسل الذكريات[2]

ومن ذلك أيضا هذه الأبيات للشاعر توفيق زياد وقد كتبها وهو سجين بسجن الرملة عام 1958م يقول فيها:

[1] محمود درويش، الأعمال الأولى1، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص:122.

[2] سميح القاسم، ديوان، دار العودة، بيروت، لبنان، دط، 1987، ص: 86.

سيعود شعبي في ضياء الشمس

من خلف الحدود

سيعود للظل المهدم

يتبينه من جديد

سيعود للأرض الحبيبة

للزنابق والورود

سيعود...

رغم النار والأغلال

خفاق البنود[1]

ما يميز شعر المقاومة أيضا غلبة روح التفاؤل، فبالرغم من أن ظروف الأمة قد تكون سيئة، وغير مبشرة، مثلما حصل بعد نكسة عام 1967م، إلا أن شعر المقاومة يبقى دائما يستشرق الأمل ليرسم نورا ولو خافتا وسط العتمة، ويحاول نقل هذا الإحساس للمتلقي لإشعاره بالأمل والاستبشار بالمستقبل، لإعادة الثقة فيه وفي قدرته على الفعل لتغيير الواقع.

ومن الأبيات التي حملت هذا المعنى قصيدة بعنوان (رد الفعل) لمحمود درويش يقول فيها:

وطني!يعلمني حديد سلاسلي

عنف النسور، ورقة الضفائل

[1] توفيق زياد، مجموعة أشد على أياديكم، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص: 41.

ما كنت أعرف أن تحت جلودنا

ميلاد عاصفة..وعرس جداول

سدوا علي النور في زنزانة

فتوهجت في القلب..شمس مشاعل

كتبوا على الجدران رقم بطاقتي

فنما على الجدران..مرج سنابل

رسموا على الجدران صورة قاتلي

فمحت ملامحها ظلال جدائل[1]

إن هذه الأبيات أبلغ دليل على قدرة شعر المقاومة على صنع التفاؤل، ونقل هذا الإحساس للمتلقي بصورة تامة.

ومن ذلك أيضا قصيدة (من وراء القضبان) وهي للشاعر توفيق زياد ومن مجموعته (أشد على أيديكم) يقول فيها:

ألقوا القيود على القيود

فالقيد أو هي من زنودي

لي من هوى شعبي

[1] محمود درويش، الأعمال الأولى1، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص:249.

ومن حب الكفاح، ومن صمودي

عزم.. تسعر في دمي

نارا على الحطب الشديد

يا طغمة أسقيتها...

كأس المذلة من قصيدي[1]

ما يميز شعر المقاومة كذلك، أنه شعر إنساني يرتفع عن الأنا الضيقة ليكون معبرا عن حالة عامة تلتقي فيها كل الحالات المتشابهة، التي تعاني من الظلم والاستعمار، لأنه شعر الجموع التي تناضل وتقاتل لنيل حريتها واسترجاع أرضها، وهذا النوع من الشعر يبقى بنفس قوته بلغته الأصلية لو تم ترجمته لأي لغة أخرى، لأن الحرية واسترجاع الأرض والنضال في سبيل ذلك ثقافة إنسانية وليست خاصة بثقافة معينة أو مقتصرة على أمة بعينها.

ومن أمثلة هذا النوع من الشعر هذه الأبيات لمحمود درويش وهي من قصيدة له بعنوان (مزامير) يقول:

يوم كانت كلماتي

تربة..

كنت صديقا للسنابل

يوم كانت كلماتي

[1] توفيق زياد، مجموعة أشد على أياديكم، دار العودة، بيروت، لبنان، ط1، دت، ص: 37.

غضبا..

كنت صديقا للسلاسل

يوم كانت كلماتي

حجرا..

كنت صديقا للجداول

يوم كانت كلماتي

ثورة..

كنت صديق للزلازل[1]

[1] محمود درويش، الأعمال الأولى1، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2005م، ص: 23-24.

الفصل الثاني :

شعر المقاومة عند سميح القاسم .

المبحث الأول : تجليات المقاومة عند سميح القاسم .

المبحث الثاني : أبرز قصائد المقاومة عند سميح القاسم .

– قصيدة الانتفاضة .

– قصيدة خطاب في سوق البطالة .

المبحث الأول : تجليات المقاومة في شعر سميح القاسم .

لقد ارتبط الشعر الفلسطيني بالنضال ، فلا وجود لشاعر فلسطيني غير مناضل في جيل سميح وفي الجيل الذي سبقه مثل أبي سلمى وعبد الرحيم محمود وإبراهيم طوقان ، الشعر في نظر الشاعر الفلسطيني سلاح لمقاومة العدو الصهيوني ، الكلمة وسيلة للنضال وليس لها غاية في ذاتها، فالغاية هي تحرير الوطن ، تحرير الإنسان والأرض ، الغاية هي النصر أو الشهادة ، ويتجلى هذا المفهوم للشعر عند شعراء المقاومة الفلسطينيين في شعرهم ، فهذا سميح القاسم يقول :

من دمي .. من ألمي .. من ثورتي

من رؤاي الخضر .. من روعة حبي

من حياتي أنت .. من أغوارها

يا أغاني ! فرودي كل درب[1]

ويقول في قصيدة (مازال):

دم أسلافي القدامى لم يزل يقطر مني

وصهيل الخيل مازال ، وتقريع السيوف

وأنا أحمل شمسا في يميني وأطوف

في مغاليق الدجى .. جرحا يغني ![2]

الشعر يتحدد هنا بوظيفته لا بجماليته ، فقيمته تكمن في كونه سلاحا إلى جانب بقية الأسلحة المقاومة للعدو، وشعراء المقاومة لا يملكون من الوقت ما يكفي للاهتمام بجمالية الشعر فهو ثورة غضب ومواجهة ، ورد فعل سريع ضد العدوان الصهيوني ، ومن ثم فالشعر يجب أن يواكب الثورة ، أن يعبر عن معاناة الشعب ، ولا يقف في الساحات ليتجمل أو يتزين ، لهذا طغت المباشرة

[1] سميح القاسم ، ديوان ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، دط ، 1987 ، ص : 33 .

[2] نفس المصدر ، ص: 36 .

على شعراء المقاومة بصورة عامة « إنهم مضطرون غالبا إلى تسمية الأشياء بأسمائها ، وإذا عمدوا إلى الرموز فليس لضرورة فنية دائما ، بل قد تكون ضرورة احترازية »[1].

وتتجلى روح المقاومة في شعر سميح ابتداء من عناوين مجموعاته الشعرية مثل (دمي على كفي) (دخان البراكين) (في انتظار طائر الرعد) ، وفي عناوين قصائده مثل (الجواد الجامح) (ليد ظلت تقاوم) (حتى الموت) (أعدكم أن ترثوا جيادا نفاثة) (كلمة الصعود) ...

ولكن هذا لا ينفي ما ذهب إليه يوسف الخطيب الذي يركز على المهيمن في أشعاره هؤلاء الشعراء الثلاثة من جهة كما أن البعد الوطني لا يتعارض مع البعد القومي من جهة أخرى .

ويحاول مطاع صفدي أن يحدد مميزات شعر المقاومة عند سميح القاسم فيرى أن الشاعر يلجأ « إلى الحكاية العربية ويخلع منها كان ما كان ، و يرصعها بالأهزوجة تارة وبالموال تارة أخرى ، ويربط مقاطعها بعبارات مألوفة ، ولكنها تأخذ بريقا جديدا على أوتار الوجدان المقاوم الذي بدأ ينمو في صدر كل منا »[2]

فمن يقرأ دواوين سميح القاسم يلاحظ هذه اللغة القريبة من الحياة اليومية والأسرية والشارع ومن الأغاني الشعبية ، فلغته بسيطة لكنها عميقة لارتباطها بالوطن والأرض والقضية الفلسطينية وهو في شعره يستعمل الحكاية والموال والأهزوجة والحوار والخطابة ، وأحيانا يجمع بين بعض هذه العناصر في القصيدة الواحدة كما في قصيدة (ليلى العدنية) وقصيدة (من مفكرة أيوب) وقصيدة (مزامير) وقصيدة (في ذكرى المعتصم) وقصيدة (أصوات من مدن بعيدة) التي نختار منها هذه المقاطع

يا رايحين إلى حلب

معكم حبيبي راح

ليعيد خاتمة الغضب

في جثة السفاح[3]

[1] سميح القاسم ، المصدر السابق ، ص : 20 .

[2] نفس المصدر : 16 .

[3] نفس المصدر : 353 .

.....

يجيئون ليلا ، يجيئون

فاستيقظوا استيقظوا

واحرصوا القرية الخائفه

يجيئون ليلا

من الغرب .. في مسرب العاصفة[1]

.....

كانوا ثلاثة فتية ، عبروا

ليلا على بابي

جاؤوا وفي أعناقهم خبر

من عند أحبابي[2]

.....

صاح الأول: ويلاه ! صار عدونا القمر

صاح الثاني: لا تذرفي دمعا .. سننتصر

وأكمل الثالث: في نسلنا .. في الموعد الآتي ![3]

[1] سميح القاسم ، المصدر السابق ، ص 354 – 355 .

[2] نفس المصدر ، ص 360 .

[3] نفس المصدر ، ص 360 .

إن قاموس شعر المقاومة لدى سميح القاسم يضج بكثير من المفردات الثورية (الثورة ، المقاومة، الكفاح ، النضال ، السلاح ، النار، الدم، الشهيد ، العدو، القتل ، الوطن ، الموت ، النصر، السجن ، الاعتقال ، الغاز، الدخان ، الأغلال ، الطغاة ، السفاح ، السيف ، الراية ، البطولة ، الثوار، الأبطال ، الرصاص ، الرشاش ، الكمين ، الجراح ، القضبان ، الطوفان ، الفداء، البندقية ، المدفع ، البارود ، الحرب ، الصمود ، المعركة ، القنابل ، السلاسل ، العذاب ، البكاء ، الغضب، شريد ، لاجئ ، انتفاضة ، جثث ، قبور، بركان ، الأيتام، الحرية ، الأحرار، الجنود، الحديد ، السكين ، الغزاة ، الحريق ، الرماد ، الجحيم ، العاصفة ، الخنادق ، الألغام ، الضحايا ، الثار، استعمار، الدمار، الحصار، الصراخ، الهجوم ، الطائرة ، الدبابة ، أسلاك .....).

وهذا القاموس الثوري يزداد غنى بتوظيفه في تراكيب نحوية و بلاغية و رمزية و أسطورية و حوار و سرد و أهازيج ، على أن قصائد سميح القاسم لم تخل من نبرة خطابية ، وهي ليست قيمة سلبية دائما، وقد وضح القاسم ، فالشاعر الفلسطيني شاعر قضية ، شاعر يدافع عن وطن ومن ثم فهو يتكلم باسم الشعب :

تقدموا تقدموا !

كل سماء فوقكم جهنم

وكل أرض تحتكم جهنم

تقدموا

يموت فينا الشيخ والطفل

ولا يستسلم

وتسقط الأم على أبنائها القتلى

ولا تستسلم ...

لن تكسروا أعماقنا

لن تهزموا أشواقنا

نحن قضاء مبرم[1]

إذا الخطابية تنشأ من لمواجهة المباشرة للعدو، أو لجهة معينة ، وهي نتيجة موقف آني أو رد فعل فوري تقوم على استعمال اللغة بطريقة تقريرية مباشرة للوصول إلى هدف محدد دون لبس أو غموض وتحمل هذه النبرة الخطابية ثورة و غضبا أو سخطا أو رضا و استحسانا ، يقول سميح القاسم في قصيدة (خطاب في سوق البطالة) من ديوان (دمي على كفي) :

ربما أفقد – ما شئت – معاشي

ربما أعرض للبيع ثيابي وفراشي

ربما أعمل حجارا .. وعتالا .. وكناس شوارع ..

ربما أبحث ، في روث المواشي ، عن حبوب

ربما أخمد .. عريانا .. وجائع ..

يا عدو الشمس .. لكن .. لن أساوم ..

و إلى آخر نبض في عروقي .. سأقاوم !! ..[2]

كما أن ظاهرة الخطابية عنه كثيرا ما دفعته إلى ظاهرة أخرى هي التكرار ، وهي ظاهرة نجدها في شعر المقاومة بصورة عامة قد يعود هذا إلى التأثر بالأغاني الشعبية ، كما يعود إلى التأكيد والإصرار في مواجهة المغتصب أيضا ، وقد يكون طريقة في عملية الإبداع عند الشاعر والتكرار عنه مولد للمعاني من جهة ، ورابط لمكونات القصيدة من جهة أخرى ، وقد لاحظنا في هذه القصيدة تكرار مفردة ربما في بداية كل سطر بحيث لا تكتمل جملة إلا بنهاية المقطع بقوله مستدركا (لكن لن أساوم و إلى آخر نبض في عروقي .. سأقاوم !!) و هي لازمة تكرر في نهاية كل مقطع من القصيدة ، و هذا

ما نلاحظه في العديد من قصائده .

[1] سميح القاسم ، الأعمال الكاملة ، الجزء الثالث ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، دط ، يناير 1993م ، ص 405 – 406 .

[2] سميح القاسم ، ديوان ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، دط ، 1987 ، ص : 447 .

و قد ارتبط التكرار عند سميح القاسم بالإنتاج الفوري أحيانا و بذكر كل التفاصيل الصغيرة في الحياة أحيانا أخرى ، وحتى تصبح القصيدة تعدادا لمظاهر الحياة أو تكديسا لما يقرأه و يسمعه في مختلف الإذاعات ويراه في نشرات الأخبار ، على أن الشعر ليس نقلا للمعلومات والأخبار بل موقف مما يراه الشاعر و يسمعه و يقرأه ، فالمعلومات لا قيمة لها في ذاتها ولكن في اكتشاف معنى جديد فيها ، وتوظيفها بطريقة فنية لبناء النص الشعري .

الشعر ليس عرضا للأفكار و الآراء ولكنه موقف منها ، الشاعر ليس صحفيا يلهث وراء الأحداث ولكن يتميز برؤية خاصة لها ، الشعر تشكيل خاص لمكونات سياسية و اجتماعية وثقافية وبناء يتنامى حتى يصل النص إلى ذروته وليس تداعيا للأفكار ، الشعر نظام بالدرجة الأولى ، اتساق وانسجام و إلا اضطرب النص و تفتت مواده وأمكن للقارئ أن يقدم ويؤخر ويحذف ، فالنص لا يكون صاحب سلطان على المتلقي إلا إذا كان محكم البناء .

المبحث الثالث : أبرز قصائد المقاومة عند سميح القاسم :

قصيدة الانتفاضة :

{ رسالة إلى غزاة لا يقرأون !! }

تقدموا تقدموا !

كل سماء فوقكم جهنم

وكل أرض تحتكم جهنم

تقـــــدمـــــــــوا

يموت منا الطفل والشيخ

ولا يـستـسلـــــــــم

وتسقط الأم على أبنائها القتلى

ولا تستسلم

تقـــــدمـــــــــوا

بناقـــلات جندكـــم

وراجمات حقدكـــــم

وهـــــــــــددوا

وشـــــــــــــردوا

ويتموا

وهدموا

لن تكسروا أعماقنا

لن تهزموا أشواقنا

نحن قضاء مبرم

تقدموا

طريقكم وراءكم

وغدكم وراءكم

وبحركم وراءكم

وبركم وراءكم

ولم يزل أمامنا

طريقنا وغدنا وبرنا وبحرنا

وخيرنا وشرنا

فما الذي يدفعكم من جثة لجثه

وكيف يستدرجكم من لوثة

للوثه

سفر الجنون المبهم

تقدموا

وراء كل حجر كف

وخلف كل عشبة حتف

وبعد كل جثة فخ جميل محكم

وإن نجت ساق

يظل ساعد ومعصم

تقدموا

كل سماء فوقكم جهنم

وكل أرض تحتكم جهنم

تقدموا

حرامكم محلل

حلالكم محرم

تقدموا

بشهوة القتل التي تقتلكم

وصوبوا بدقة لا ترحم

وسددوا للرحم إن نطفة من دمنا

تضطرم

تقدموا

كيف اشتهيتم واقتلوا

قاتلكم مبرأ

قتيلنا متهم

ولم يزل رب الجنود قائما وساهرا

ولم يزل قاضي القضاء المجرم

تقدموا

لا تفتحوا مدرسة

ولا تغلقوا سجنا

ولا تعتذروا ، لا تحذروا ، لا

تفهموا

أولكم آخركم

مؤمنكم كافركم

وداؤكم مستحكم

فاسترسلوا

واستبسلوا

واندفعوا

وارتفعوا

واصطدموا

وارتطموا

لآخر الشوط الذي ظل لكم

وآخر الحبل الذي ظل لكم

فكل شوط وله نهاية

وكل حبل وله نهاية

وشمسنا بداية البداية

لا تسمعوا / لا تفهموا / تقدموا

كل سماء فوقكم جهنم

وكل أرض تحتكم جهنم !!

لا خوذة الجندي

لا هراوة الشرطي

لا غازكم المسيل للدموع

غزة تبكينا

لأنها فينا

ضراوة الغائب

في حنينه الدامي إلى الرجوع

تقدموا

من شارع لشارع

من منزل لمنزل

من جثة لجثة

تقدموا

يصيح كل حجر مغتصب

تصرخ كل ساحة من غضب

يضج كل عصب :

الموت ..لا الركوع

موت ..ولا ركوع !!

تقدموا ..

ها هو ذا قد تقدم المخيم

تقدم الجريح والذبيح والثاكل

والميتم

تقدمت حجارة المنازل

تقدمت بكارة السنابل

تقدم الرضع والعجز والأرامل

تقدمت أبواب جينين ونابلس

أتت نوافذ القدس صلاة الشمس

والبخور والتوابل

تقدمت تقاتل ! تقدمت تقاتل !

لاتسمعوا

لا تفهموا

تقدموا

كل سماء فوقكم جهنم

وكل أرض تحتكم جهنم..[1]

يلاحظ غسان كنفاني أن الشعر العربي في الأرض المحتلة يتميز بخاصيتين ، تميزانه عن الشعر العربي خارج الأراضي المحتلة وهاتان الخاصيتان هما :

– أولا : « إن الشعر في الأرض المحتلة ، عكس شعر المنفى ، ليس بكاء ولا نواحا ولا يأسا ، ولكنه إشراق ثوري دائم وأمل يستثير الإعجاب ».[2]

– ثانيا : « يتأثر الشعر العربي في الأرض المحتلة بسرعة مذهلة وبتكيف كامل مع الأحداث السياسية العربية ويعتبرها إكمالا لموضوعه و جزءا من مهماته »[3].

وهذه القصيدة تمثل أصدق دليل على ما استنتجه غسان كنفاني ، فالقصيدة ليست نواحا بقدر ما هي إشراقات تصدر من صميم المعاناة ، حملت كل معاني شعر المقاومة في الاستبشار بالغد المشرق ، رغم كل الظلم والاستبداد والقتل والاحتلال الذي يمارسه الأخر ، وهي في ذات الوقت انعكاس حقيقي لما يجري في الأراضي المحتلة آنذاك ، وهو اندلا ع ثورة الحجارة الأولى التي بدأت في شهر ديسمبر عام سبعة وثمانين .

وبما أن الفعل وهو هنا ثورة الحجارة « هو الذي يصنع حرارة القصائد ، وهو نفسه الذي يصنع العبارة »[4] كانت هذه القصيدة التي تبدو كلماتها متتابعة تتابع طلقات الرصاص في جبهات القتال ، وساخنة كسخونة الأرض تحت قدمي المستعمر ، كانت تمثل مع غيرها من القصائد التي حاولت مجاراة هذا الفعل العظيم وتخليده ، المعادل الشعري الموضوعي للانتفاضة .

وبما أن ثورة الحجارة كانت أكبر بارقة أمل منذ نكبة جوان سبعة وستين باعتبار أن حرب أكتوبر ثلاثة وسبعين لم تكن انتصارا كما لم تكن هزيمة ، حيث ادعى كلا الطرفين العرب واليهود الانتصار ، فقد كان للشعراء أن يتمسكوا بهذا الأمل المنبعث من الرماد ، ويحاولوا أن يرتقوا

[1] سميح القاسم ، الأعمال الكاملة ، الجزء الثالث ، دار سعاد الصباح ، الكويت ، دط ، يناير 1993 م ، ص 405 – 411 .
[2] غسان كنفاني ، أدب المقاومة في فلسطين المحتلة 1948- 1966 ، دار منشورات الرمال ، قبرص ، ط1 ، 2013م ، ص 36
[3] نفس المصدر ، ص36 .
[4] عبد العزيز المقالح ، صدمة الحجارة ، دراسة في قصيدة الانتفاضة ، دار الآداب ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1992م ، ص38 .

بقصائدهم لمستوى هذا الحدث العظيم الذي غير من مفاهيم الصراع كما غير من مفاهيم الشعر نفسه.

القصيدة من ديوان الشاعر (لا أستأذن أحدا) الصادر في بيروت عام 1988

في بدايتها عنوان فرعي بسيط ومعبر يقول (رسالة إلى غزاة لا يقرأون) والمقصود بلا يقرأون أن الغزاة لا يقرؤون التاريخ وإلا لما كانت أفعالهم على هذا الوجه .

عنوان القصيدة يوضح مباشرة محتواها ويحيلنا بدون وسائط إلى فكرة القصيدة الرئيسية وهي الانتفاضة الفلسطينية، وهي تتناص بشكل لافت مع قصيدة محمود درويش (عابرون في كلام عابر).

كلمات القصيدة جاءت واضحة تماما ابتعدت عن الغموض وعن الإغراق في الرمزية ، وذلك لأن« شاعر القضية لا سيما القضية الساخنة لا تستهويه اللعبة اللغوية ، لأنها تفقد المفردة حرارتها وطاقتها الموحية »[1]وسبق أن استنتجنا أن من سمات شعر المقاومة الوضوح وذلك حتى يصل لكل المتلقين مهما كانت درجة ثقافتهم .

تبدأ القصيدة بفعل الأمر (تقدموا) التي تمثل « الصورة المحورية للقصيدة .....رمز للحياة ،لحياة الناس في زمن الانتفاضة »[2] ،وقد سبق التطرق لكثرة وأهمية استعمال أفعال الأمر في عدد من القصائد التي تصنف على أنها من شعر المقاومة ،سواء عند درويش أو عند القاسم ، وفعل الأمر هنا مخاطب به الآخر الجمع ، فهو صادر عن جماعة موجه لجماعة ، فالشاعر لسان حال قومه ، هذا ما استقر في الذاكرة العربية عن الشاعر ، ومن هنا كانت مكانته في الجاهلية عالية في قبيلته حيث يصنف الشاعر دائما على أنه من علية القوم ، بل استمرت هذه المكانة حتى بعد الإسلام كالمكانة التي كان يتبوأها الصحابي الشاعر حسان بن ثابت شاعر الرسول الأعظم عليه الصلاة والسلام ، وكعب بن زهير وغيرهما .

[1] عبد العزيز المقالح ، المرجع السابق ، ص38 .

[2] أحلام يحي ، موسوعة الأدب الفلسطيني ، صب الغمام ، فلسطين في ذاكرة الشعراء ، دار نبوي للدراسات و النشر و التوزيع ، ط1، دت ، ص498 .

الافتتاحية بهذا الشكل تبدو بلا شك صادمة للمتلقي ، فعادة ما يكون الكلام الموجه للعدو بالتراجع لا بالتقدم ، ولكن سرعان ما تزول الصدمة مع أول جملة تلي فعل الأمر حين يتقرر في ثلاث كلمات ، المناخ العام الذي يطلب من الآخرين المعتدين التقدم فيه وهو مناخ الحرب ، الذي يملأ كل مكان في الأرض كما في السماء ، أي أن النص ابتدأ من العام أو من المطلق لينتقل إلى الخاص أو إلى المحدد ، فالنص يمكن تصوره بدأ بالخاتمة أو بالنتيجة النهائية ، ليدور باقي النص حول التفصيلات وحول الصور الجزئية التي تحيطها الصورة العامة للنص .

باقي النص يمثل فعلا من العدو يتكرر ويتنوع ويختلف يقابله الثبات وإصرار على رد فعل واحد من الشاعر وقومه يقابل كل هذه الأفعال مهما اشتدت ، هذا الرد هو الثبات على المبدأ ، وعدم الاستسلام .

ويمكن أن نوضح كل فعل من العدو وما يترتب عليه من ردات فعل :

يموت الطفل والشيخ	لا يستسلم
تسقط الأم على أبنائها القتلى	لا تستسلم
تهديد ، تشريد ، يتم ، تهديم	لن يكسروا الأعماق ، لن يهزموا الأشواق
طريق العدو وغده وبره وراءه	طريق الشعب وغده وبره أمامه

كما يبدو الاستخدام الواضح لأسلوب المقابلة بين الألفاظ فكل لفظ يدل على صفة يتصف بها العدو ، يوجد ما يقابلها ، أو اللفظ الذي يعطي صفة مناقضة لصفة قوم الشاعر ، وهذا ما جعل النص ميدانا حقيقيا للصراع بين موقفين متضادين يمثلان شعبين متصارعين لا يمكن تصور وجود أحدهما دون اختفاء واضمحلال الآخر ، أحدهما يدعم وجوده بالحديد والنار والآخر يثبت وجوده بالصبر والمقاومة واستلهام الماضي لصنع الغد .

والقصيدة تحرض على الصبر والمقاومة واستلهام الماضي لصنع الغد ، تحرض على رفض الظلم ، وهي بهذه الصفات تتعدى الأفق البسيط المحدد بوطن الشاعر لتكون معبرة عن حالة إنسانية عامة ، وإن تم ترجمة القصيدة إلى أية لغة أخرى لاحتفظت بنفس الزخم ونفس القوة التي يستشعرها

المتلقون للنص بلغته الأصلية ، لأن الظلم و الاستعباد و الاستعمار لغة واحدة ،كما للمقاومة لغة واحدة تتعدى الحدود الضيقة ومن الأمثلة التي يمكن أن نوردها للشعراء العالميين الذين تأثروا بالقضية الفلسطينية وتحديدا بثورة الحجارة شاعر فيتنامي تعاطف مع أطفال ثورة الحجارة الفلسطينية ، لأنه رأى فيها امتدادا للثورة الفيتنامية التي طردت المستعمر الأمريكي في حرب طويلة دفع ثمنها سكان البلاد من دمائهم ودموعهم ، ويقول مطلع القصيدة :

أنتم تعطون روحي الحجارة

النار لون القمر عندما يغطي الحقول

أحمل جرحي من أجلكم أضعه في خزانتي العتيقة

حقا إن بندقيتي العتيقه

لم تعد تصلح

لكن روحي العتيقه

تصلح لتكون معكم[1]

هذه القصيدة التي كتبها شاعر من أقاصي الأرض ، ورغم اختلاف اللغة التي كتبت بها تشير إلى أن شعر المقاومة هو شعر إنساني بالأساس يحمل كل المعاني الإنسانية الحقيقية التي لا يختلف عليها عاقلان ، فالشعر – الذي هو من أقدم الأجناس الأدبية — يعود بالمتلقي إلى فجر الإنسانية الأولى قبل أن تستعبده المادة ، وبالتالي يصل بالفكرة من القلب إلى القلب دون اعتبار للغة أو الثقافة أو الدين .

في نهاية المقطع الأول من القصيدة الذي يمكن اعتباره يبدأ من (تقدموا خلف كل حجر كف).

يبدو لنا سبب تسمية القصيدة الانتفاضة ، والاستعمال هنا يفيد كثرة عدد الأيدي التي ترمي الحجارة على العدو الإسرائيلي ، وهذا ينطبق كذلك على البيت الذي يلي (خلف كل عشبة

[1] عبد العزيز المقالح ، المرجع السابق ، ص50 .

حتف) ، وذلك للدلالة على أن الانتفاضة هي انتفاضة شعب بكامله ، كبار وصغار رجال ونساء شيب وشباب ، وبالفعل كانت الانتفاضة الفلسطينية انتفاضة شعب أدت إلى تغيير نظرة العالم للإنسان الفلسطيني من لاجئ طريد إلى إنسان مقاوم مؤمن بقضيته وبحقه في الحياة ، وهذا ما أدى بالضرورة إلى تغير الأدب محاولا الاقتراب من عظمة هذا التحول في المشهد السياسي الفلسطيني .

المقطع الثاني هو يبدأ بنفس جملة الافتتاح في المقطع الأول ترتفع فيه حدة الخطاب وترتفع معها موسيقى النص ،حيث ينتقل الخطاب إلى الجانب الزمني الذي يؤكد هنا على تحريم كل حلال على الآخر وعلى تحليل كل محرم عليه ، وكأنه يعمد إلى القول بأن التناقض بين الشعبين يمتد ليشمل كل شيئا مهما كان بسيطا كي لا يترك أي مجال للشك أو المساومة ، على أنه يجب ملاحظة أن النص يخاطب العدو مباشرة دون أن يلجأ للرمز أو للتورية ، وذلك لإثبات المحاجة وإقامة الدليل دون خوف أو تردد ، كما يمكن إرجاع ذلك للثقة التي أعادتها الانتفاضة الفلسطينية .

تتوالى صور النص في الظهور ، كل صورة تختلف عن سابقتها في الشكل ولكنها تتفق معها تماما في المحتوى ، حيث يمكن تقسيم الصور في النص إلى صورتين : صورة المعتدي الإسرائيلي ، ويمثله الإرهاب والقتل والدمار بشتى الوسائل دون اعتبار لكبير أو لصغير طفل أو امرأة ، وصورة الشعب الصامد الذي لا تؤثر فيه هذه الآلة الإسرائيلية ، ولا تفت في عضده بل تملأه إصرارا وعزيمة على مواصلة الثبات والتشبث بالأرض .

صورتان متناقضتان تحكمان النص في صراع لا منتهى ، صورة الإسرائيلي المعتدي تتعدد وتتطور ، ولكنها تبقى دائما تحمل نفس المحتوى ونفس الصفات التي تمثل الظلم والخراب ، وهذا ما جعل الهم الفلسطيني والمعاناة الفلسطينية هما ومعاناة إنسانية .

في وسط القصيدة تتوالى مجموعة من أفعال الأمر وهي هنا « تعبير واقعي عن قدرة الانتفاضة على تغيير الخطاب الشعري في القصيدة الفلسطينية وإعطاء هذا الخطاب صيغته الآمرة بما تحمله هذه الصيغة من دلالات مترعة بالأمل والحدس العميق »[1]

[1] عبد العزيز المقالح ، المرجع السابق ، ص86 .

كثرة أفعال الأمر كذلك تشير إلى ثقة متزايدة في النفس مع استهانة بالعدو ، وهذا أيضا يعود للأثر الذي أحدثته الانتفاضة في عقلية المواطن الفلسطيني وفي طريقة حياته وطرقة تفكيره ، وبالتالي انتقل هذا الشعور للشاعر الفلسطيني وانعكس ذلك في نتاجه الشعري .

يلاحظ أيضا كثرة استعمال حرف العطف (الواو) حتى يبدو أنه يربط أجزاء القصيدة لبعضها من الناحية الشكلية ولكن كذلك يجعل النص يشكل دفقة شعورية واحدة .

المقطع الأخير يمثل مشهد الختام لكل المقاطع التي تقدمه ، أو أنه النتيجة الحتمية لجميع ما قام المعتدي بفعله ، وهو المشهد الذي تنتصر فيه الضحية وهو هنا الشاعر الفلسطيني وشعبه وقد رسمه الشاعر بدقة متناهية فها هو :

يتقدم المخيم

يتقدم الجريح والذبيح والثاكل والميتم

تتقدم حجارة المنازل

جميع هذه الأشياء تقدمت تقاتل ، وبالفعل كانت القصيدة لسان حال الانتفاضة بل يمكن القول أن القصيدة بحد ذاتها انتفاضة ستبقى علامة مضيئة في تاريخ الشعر العربي .

قصيدة : خطاب في سوق البطالة .

ربما أفقد – ماشئت – معاشي

ربما أعرض للبيع ثيابي وفراشي

ربما أعمل حجارا .. وعتالا .. وكناس شوارع ..

ربما أبحث ، في روث المواشي ، عن حبوب

ربما أحمد .. عريانا .. وجائع ..

يا عدو الشمس .. لكن .. لن أساوم ..

وإلى آخر نبض في عروقي .. سأقاوم !!..

* * *

ربما تسلبني آخر شبر من ترابي

ربما تطعم للسجن شبابي

ربما تسطو على ميراث جدي ..

من أثاث.. وأوان .. وخوابي ..

ربما تحرق أشعاري وكتبي

ربما تطعم لحمي للكلاب

ربما تبقى على قريتنا كابوس رعب

يا عدو الشمس .. لكن .. لن أساوم ..

وإلى آخر نبض في عروقي .. سأقاوم !!..

* * *

ربما تطفئ في ليلي شعله

ربما أحرم من أمي قبلة

ربما يشتم شعبي وأبي ، طفل ، وطفلة

ربما تغنم من ناطور أحزاني غفلة

ربما زيف تاريخي جبان ، وخرافي مؤله

ربما تحرم أطفالي يوم العيد بدلة

ربما تخدع أصحابي بوجه مستعار

ربما ترفع من حولي جدارا وجدارا وجدار

ربما تصلب أيامي على رؤيا مذلة !

يا عدو الشمس ، لكن ، لن أساوم

وإلى آخر نبض في عروقي .. سأقاوم

يا عدو الشمس ..

في الميناء زينات ، وتلويح بشائر

وزغاريد ، وبهجه

وهتافات ، وضجه

والأناشيد الحماسية وهج في الحناجر

وعلى الأفق شراع ..

يتحدى الريح .. واللج .. ويجتاز المخاطر ..

إنها عودة يوليسيز

من بحر الضياع ..

عودة الشمس ، وإنساني المهاجر

ولعينيها ، وعينيه .. يمينا .. لن أساوم ..

وإلى آخر نبض في عروقي ..

سأقاوم..

سأقاوم..

سأقاوم..!!..[1]

هذه القصيدة التي « حفظت و درست كثيرا لتكون علما من أعلام الشاعر »[2] تعد من أشهر القصائد التي تندرج تحت مسمى شعر المقاومة ، لتكون بجانب إبداعها الفني وتعدد الصور الفنية التي احتوتها ، تمثل قوة ردة فعل الإنسان الفلسطيني على ما يقع عليه من ظلم وبطش ، والقصيدة تطرقت لكل ما يحاول الإسرائيلي أن يدفع إليه الشاعر وقومه ، سواء كانت بطريق مباشر أو غير مباشر ، واستمرار الشاعر و بالتالي قومه في الصمود على الخيار الأبدي وهو خيار المقاومة .

من حيث الأسلوب جاءت « بالرغم من بساطة كلمات القصيدة تشع بالنور لأنها حملت التحدي والإصرار »[3] ، فكانت أقرب للفهم من المتلقي ، وبما أن شعر المقاومة يسعى للوصول إلى جميع أطياف المجتمع للتأثير فيهم واستثارتهم للفعل ، فقد كانت هذه القصيدة من أكثر قصائد الشاعر انتشارا وشهرة وهي من ديوانه (دمى على كفى) الصادر في الناصرة بفلسطين المحتلة عام سبعة وستين .

القصيدة مقسمة إلى ثلاثة مقاطع تختلف من ناحية الطول حيث يبدو المقطع الأول أقصر المقاطع ثم الثاني أكثر طولا ثم المقطع الأخير أطول مقاطع القصيدة ، ولهذا التقسيم وظيفة هامة وهي نقل الدفقة الشعورية للمتلقي .

كل مقاطع القصيدة تبدأ بنفس الكلمة (ربما) متبوعة بفعل مضارع ، كما تنتهي بنفس الكلمة (سأقاوم)

[1] سميح القاسم ، ديوان ، دار العودة ، بيروت ، لبنان ، ط1 ، 1987م ، ص447 -450 .

[2] أحلام يحي ، موسوعة الأدب الفلسطيني ، صب الغمام ، فلسطين في ذاكرة الشعراء ، دار نينوي للدراسات و النشر و التوزيع ، ط1، دت ، ص444 .

[3] نفس المرجع ، ص 446.

وكأن كل مقطع هو ناتج علاقة فعل ورد فعل مضاد ، أي يبدأ المقطع بفعل الإسرائيلي وينتهي برد فعل الفلسطيني وهو رد فعل لا يتغير .

المقطع الأول

المقطع مكون من سبع أبيات ، من الأول إلى الخامس يتحدث فيها النص عن معاناة الفلسطيني فهو قد :

يفقد معاشه .

يعرض للبيع ثيابه وفراشه .

يعمل حجارا وعتالا وكناس شوارع .

يبحث في روث المواشي عن حبوب .

يخمد عريانا وجائعا .

وجميع هذه المعاناة نعرف يقينا أنها وقعت على هذا الإنسان من طرف ما لم يحدده النص ، ولكن يمكن تحديده من خلال هذه الأفعال التي قام بها ، مع ملاحظة أن الشاعر / المتحدث في النص لم يقل أنه سيبيع منزله أو بيته وذلك كناية على التمسك بالأرض والوطن فالبيت رمز للوطن ومرادف له .

يقابل هذه الأبيات الخمسة بيتان يجسدان رد فعل الشاعر / المتحدث على ما وقع عليه فيصف الآخر المعتدي بعدو الشمس ، والشمس كناية عن الحرية ثم يصل إلى موقفه الذي يحدده بجملتين لن يساوم ، وحتى آخر نبض في عروقه سيبقى يقاوم .

النص يحاول أن يفهمنا أنه موجه لمخاطب مفترض نحس بوجوده دون أن نحدد ملامحه بدقة، سوى في الشطر قبل الأخير حيث يحدث التفات في النص ليتوجه الحديث نحو وصف المخاطب بجملة (يا عدو الشمس) .

مما يشد الانتباه أنه في آخر شطرين من النص ، حينما وصل النص إلى ذروة المشهد الدرامي ، جاء استعمال فعل المضارع المسبوق بسين الاستقبال (سأقاوم) ، وذلك ليؤكد دوام حالة

المقاومة فسين الاستقبال عندما تأتي سابقة للفعل المضارع تفيد ديمومة الأمر وعدم تحوله ، والكلمة جاءت وكأنها جواب لجملة شرط مفترضة رغم عدم وجود هذه الجملة في النص .

المقطع الثاني .

يبدأ المقطع بنفس الكلمة التي بدأ بها المقطع الأول لربط أجزاء النص بعضه ببعض ، ثم استمر نفس إيقاع المقطع الأول ونفس الأسلوب مع تغيير في الأفعال التي جاءت كالتالي :

ربما تسلبني .

ربما تطعم .

ربما تسطو .

ربما تحرق .

ربما تطعم .

ربما تبقى .

المقطع يتشابه كذلك مع المقطع الأول من ناحية البناء الفني الذي جاء مطابقا للمقطع الذي سبق ، كذلك المقطع يختتم بنفس جملة الاختتام في المقطع الأول ، لن أساوم – سأقاوم ،ليؤكد موقفه النهائي من قضيته غير القابلة للتغيير .

كما يلاحظ في المقطع أنه بدأ من الأرض (شبر من ترابي) ثم اتجه للإنسان (تطعم السجن شبابي) ثم وصل للأملاك الخاصة (تسطو على ميراث أجدادي) ، أي أنه بدأ من الأهم ثم الأقل أهمية ثم الأقل .

في المقطع كذلك وصف لآخر مخاطب بعدو الشمس ، أي عدو الحرية ، وهنا جاء ليؤكد هذه الحقيقة وبالتالي فليس العدو عدوا للشاعر وقومه فقط ، بل عدو لجميع الإنسانية والبشرية لأنه لا يوجد عاقل يؤيد معتد عدو الحرية ، الوصف شامل لجميع الأوصاف السيئة التي يمكن وصف العدو بها برغم إيجازه ، وفي الجملة استعارة فلفظة الشمس دالة على الحرية التي تمثل أغلى مطالب الإنسان وأبسط حقوقه في ذات الوقت .

المقطع الثالث

هو أطول مقاطع القصيدة ويمكن تقسيمه لقسمين ، القسم الأول لا يختلف على المقطعين الأول والثاني واستعملت فيه نفس الآلية من شرط مفترض وجواب شرط متمثل ، ونفس الأسلوب والصور الفنية المستعملة لا تختلف كثيرا عن مثيلاتها في المقطعين الأولين ، وحتى جملة الاختتام جاءت نفسها .

بينما نجد في القسم الثاني من المقطع و الذي يمثل ختام القصيدة كلها ، جاءت ألفاظه مسارعة ومتلاحقة لتؤكد الفكرة الجوهرية التي حملها النص ، مع المحافظة على نفس صورة المخاطب في بداية النص وهو (عدو الشمس) .

استعمال الشاعر لجملة واحدة في بداية كل مقطع وجملة واحدة في نهايته ، ربطت مقاطع القصيدة وأعطتها وحدة عضوية جعلها تبدو صورة واحدة يكمل كل مقطع جزءا من الصورة ، لترسم فيما بيننا صورة واحدة كلية ، كما جعل الانتقال بين هذه المقاطع متيسرا بحيث لا يشعر المتلقي بأنها قصيدة من مقاطع متعددة .

من ناحية الألفاظ جاء القسم الثاني بألفاظ يبدو تتابعها وسرعتها ووضوحها ليؤكد وضوح فكرة القصيدة في ذهن الشاعر وتأكيده عليها وقناعته بفكرة المقاومة وقد جاءت في القسم الثاني متفائلة ومبشرة وموحية ، ومن هذه الألفاظ : زينات ، تلويح بشائر ، زغاريد مبهجة ، هتافات ، الأناشيد الحماسية ، وهج ، عودة الشمس ، جميع هذه الألفاظ تؤكد معنى واحدا هو التفاؤل بمستقبل المقاومة ، ومستقبل الوطن المحتل ، والتفاؤل بقدرة أبناء هذا الوطن على صنع مستقبل أفضل كما يبدو تكرار جملة الختام (سأقاوم) ثلاث مرات دلالة على استمرار فكرة المقاومة باعتبارها الموقف المبدئي للشاعر .

خـاتمـة

من خلال كل ما تقدم يمكن الخلاصة إلى مجموعة من النتائج يمكن حصرها في :

– إن الشعر المقاوم هو الابن الشرعي الحقيقي للمأساة الفلسطينية ، و هذا ما رفع من قيمة الشاعر سميح القاسم و جعله يبلغ من الشهرة ما فاق في كثير من الأحيان نجوم السياسة و الفن و غيرهم من النجوم .

– للشعر المقاوم دور هام و حيوي في بعث الشعور الوطني و الشعور القومي و في تحفير الهمم للالتزام بالقضية و بتسفيه و تحقير العمالة للإسرائيلي و التفاوض معه أو مهادنته .

إن شعر المقاومة ليس شعرات محليا ضيقا لا يتجاوز الحدود بل هو شعر إنساني بالمقام الأول ، يتعدى المحلية ليصل إلى آفاق أرحب و أشمل و هذا ما أكسب القضية الفلسطينية زخما عاليا و تعاطفا غير محدود من كل الشعوب المظلومة .

– شعر المقاومة مجال مهم من مجالات الأدب العربي الحديث ، و من أوسع الأبواب الشعرية التي يدور الشعراء في رحابها و الشاعر المقاوم عليه أن يصنع مصيره بيده و بكون داعيا إلى التحرر و الاستقلال و ملتزما بقضايا مجتمعه .

– إن شعر المقاومة هو شعر الحياة العربية المعاصرة و هو بالتالي نبض الأمة المرافق لحالها ، المتطلع نحو أمانيها و أهدافها ، و بقي الشعر رؤيا الإنسان العربي الحديث فحركة الشاعر لا تنفصل عن حركة المجتمع و بهذا فقد حقق الشاعر العربي المعاصر ممارسة عالية للوعي الوطني و الاجتماعي و الفني .

– من أبرز مميزات شعر المقاومة الأمل في الانتصار و الثقة في قدرات الشعب؛ إنه يواكب الأحداث و يوثقها بفجائعها و انتصاراتها محرضا الجماهير على متابعة المقاومة .

تجلت المقاومة الفلسطينية في الشعر العربي الحديث من خلال الوقوف كالجدار في صدر المحتل و فضحه بتصوير بشاعة أفعاله اللاإنسانية ، و التشوق إلى الغد حامي المستقبل .

– إن الشعر العربي المعاصر استمد قوته من الواقع المعيش ، و استطاع أن يصور الواقع العربي تصويرا فنيا و ذلك باختيار الكلمة الموحية بطاقتها و جرسها و معناها فجاء الشعر قويا مؤثرا و استطاع أن يسجل لنا لوحات فنية من مقاومة الشعب الفلسطيني في صراعه على العدو الصهيوني.

– فجر عشق الوطن لدى الشعراء نبع الشعر الذي لا يغفل له جفن عن كل ما يدور حوله و مازال أوج عطائه يكتب و ينشر عبر كل الوسائل المتاحة .

– أفضت أشعار شعراء المقاومة إلى :

بث روح الجهاد في نفوس المسلمين و الدفاع عن الوطن و الشعر و مدح الشهداء و هجاء العدو ، و توثيق تاريخي للحروب التي تجري على الساحة الفلسطينية .

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

كلمة شكر وعرفان .

الإهداء .

مقدمة ..... أ-هـ

مدخل : شعر المقاومة .

- المقاومة لغة و اصطلاحا 07

- ترجمة الشاعر و بعض مؤلفاته 08

- أبرز شعراء المقاومة 13

- ثقافة المقاومة 17

الفصل الأول : شعر المقاومة الإرهاصات و النشأة .

المبحث الأول : شعر المقاومة : تأصيل تاريخي 23

المبحث الثاني : بواعث شعر المقاومة 34

المبحث الثالث : مميزات و خصائص شعر المقاومة 53

الفصل الثاني : شعر المقاومة عند سميح القاسم : قراءة في ديوانه .

المبحث الأول : تجليات المقاومة عند سميح القاسم 64

المبحث الثاني : أبرز قصائد المقاومة عند سميح القاسم.....70

قصيدة الانتفاضة 70

قصيدة خطاب في سوق البطالة 81

خاتمة 88

المصادر و المراجع 91

فهرس الموضوعات.....95

ملخص

موضوع المقاومة في الشعر العربي مرتبط دائما بالشعر الفلسطيني خاصة ، وهذا الارتباط ليس محض صدفة أو اجتهاد شخصي ، بل هي نتاج مأساة الانتساب الفلسطيني ومعاناته من الاستيطان الإسرائيلي ومن هذه المعاناة ولد الشعر الذي برز فيه مجموعة من الشعراء ، التزموا بقضية وطنهم ، ونحن من أبرزهم سميح القاسم الذي أوصل القضية إلى كل العالم بصوت الشعر والذي عادة ما يكون أعلى من صوت البندقية

Résumé

La question de la résistance dans la poésie arabe est toujours liée à la poésie palestinienne en particulier, et ce lien n'est pas une pure coïncidence ou une diligence personnelle, mais c'est plutôt le produit de la tragédie de l'affiliation palestinienne et de sa souffrance de la colonisation israélienne et de cette souffrance a été la poésie née dans laquelle un groupe de poètes a émergé, engagé pour la cause de leur patrie, et nous sommes parmi les plus éminents d'entre eux Samih Le dénominateur qui a porté l'affaire au monde entier avec la voix de la poésie, qui est généralement plus forte que la bruit d'une arme à feu

abstract

The question of resistance in Arab poetry is always linked to Palestinian poetry in particular, and this connection is not pure coincidence or personal diligence, but rather it is the product of the tragedy of Palestinian affiliation and its suffering from Israeli colonization and from this suffering was the poetry born in which a group of poets emerged, committed to the cause of their homeland, and we are among the most prominent among them Samih The denominator who brought the matter to the whole world with the voice of poetry, which is usually more loud as the sound of a gun